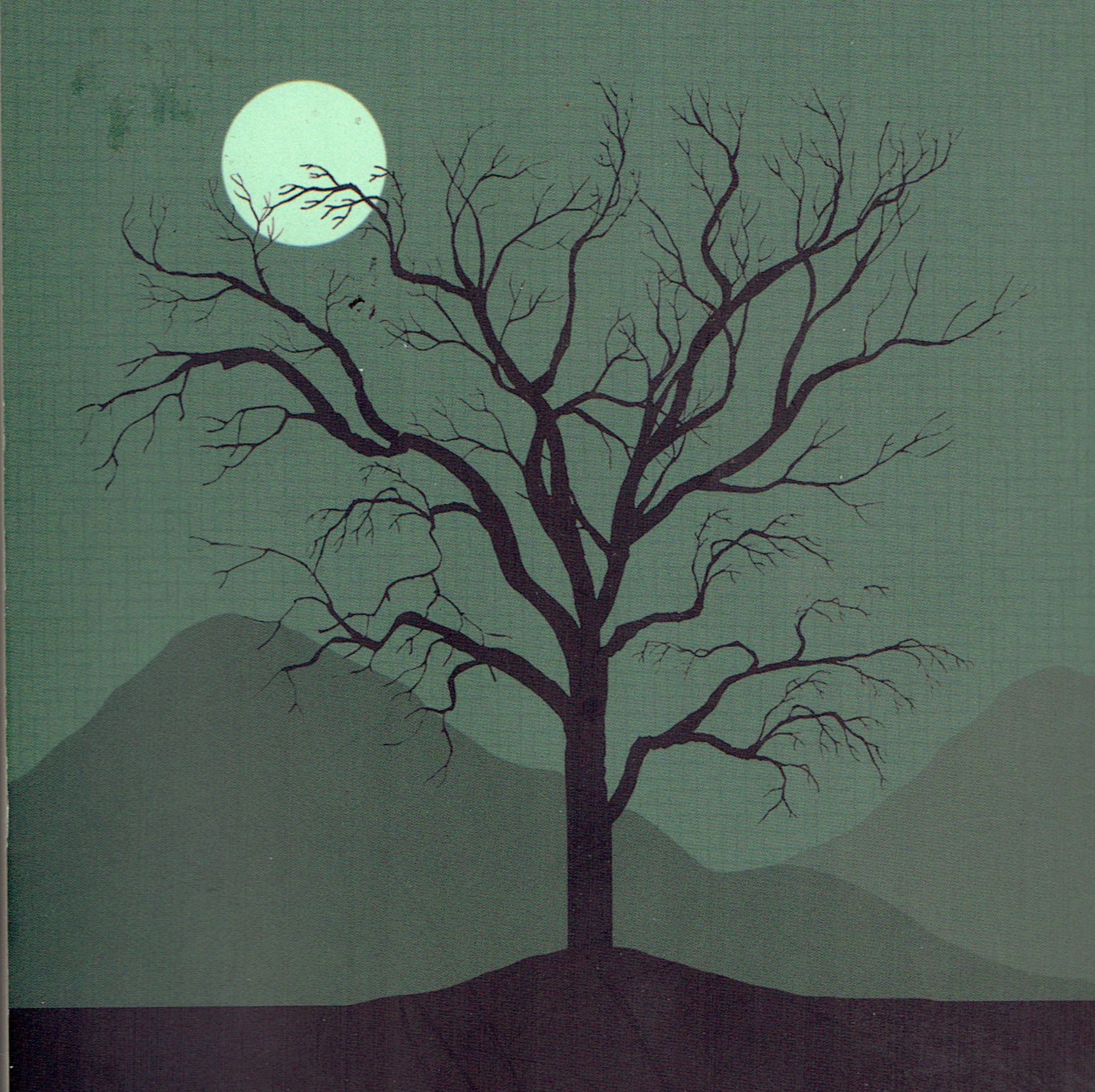
أزهر جرجيس

النوم في حقل الكرز



رواية

دار الرافدين

النوم في حقل الكرز

Sleeping in The Cherry Field

أزهر جرجيس

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2019

First Edition: Beirut _ Lebanon, 2019



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07714440520 / 07811005860

daralrafidain@yahoo.com
dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
دار الرافدين@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 607 - 74 - 0

رواية

النوم في حقل الكرز

أزهر جرجيس



www.daralrafidain.com


مكتبة المصباح للكتب الحصرية
https://www.facebook.com/BookLover8
https://t.me/BookLover8

الحياة حبّة كرز نواتها الموت.

جاك بريفير

استهلال

لولا خطأ وقع فيه ساعي البريد لما تم هذا الأمر. كان البرْد قارصاً في الخارج آنذاك، والثلجُ يندف بسخاء ليغطّي الطرقات ويدفن الأرصفة. صناديق البريد هي الأخرى كانت تعتليها ندف الثلج، وتطمس الأسماء الملصقة على جبينها. ارتديتُ كالعادة معطفاً صوفيّاً طويلاً، ووضعت غطاء رأس بذؤابتين وبَريّتَين، ثم انتعلت جزمة مبطّنة بالفراء وخرجت لتفقد البريد. مددت يدي فوجدت صحيفةً تنام في الصندوق، حُشِرتْ بين طيّاتها بطاقة دعوة. كان الأمر محيّراً، إذ ليس لديّ اشتراكٌ يوميٌّ مفعّل في الصحف! لقد أوقفته عندما صار مكتب الترجمة، الذي أعمل لصالحه، يوفّر صحف الصباح مجاناً ويضعها على مناضد الطعام في الكافتيريا. من أين جاءت هذه الدعوة إذن؟! تساءلت في سرّي وأنا أقلّب البطاقة. كانت دعوة عامة خالية من الأسماء، مرسلة من قبل صحيفة داغ بوستن واسعة الانتشار لحضور حفل يوبيلها الذهبي. شككتُ بأنّها تخصّ جاري، الطبيب المتقاعد مورتن سولهايم، فالرجل من مشتركي الصحيفة المخضرمين. طرقت عليه الباب، لكنّه لم يفتح!

اتصلت به خوفَ أن يكون قد أصابه مكروه ما، إذ ليس من عادته التأخر في النوم. أجابني البريد الصوتي لهاتفه بأنّه في رحلة إلى مدينة أنطاليا ولن يعود قبل ثلاثة أشهر. في كل شتاء يفعل هذا، يسافر نحو مدن الشمس بحثاً عن الدفء. اتصلت بالصحيفة، صاحبة الدعوة. أخبرتهم بالأمر فتأكد لي بأنّ شكّي في محلّه، وأنّ الدعوة كانت مرسلَة حقاً إلى جاري مورتن سولهايم وما وصولها عندي إلا خطأ وقع فيه موزّع البريد. اعتذرتْ حينها رئيسة التحرير بلطفٍ بالغ نيابةً عنه واقترحتْ أن تعوّضني بقطعة كيك إن لبّيتُ دعوتها وحضرتُ الحفلَ. قبلتُ بالطبع مرحّباً، فمن ذا يردّ دعوة امرأة كريمة؟! وفي الليلة التالية كنت بكامل أناقتي هناك.

كان حفلاً بهيجاً حضره العشرات من قرّاء الجريدة والصحفيين والكُتّاب والموظفين. تقف عند الباب سيّدة أربعينيّة جميلة بفُستان طويل وعطر ساحر، عرّفتْ عن نفسها بأنّها رئيسة التحرير، هيلينا يورستاد. بادلتها التحية وذكّرتها بالوعد، فضحكتْ. التقينا، بعد انتهاء الخُطب والفقرات الرسميّة للحفل، لدى البوفيه.كانت تحمل بيدَيها طبقَين، في كل طبق قطعة كيك مغطاة بالشوكولاه. تناولتُ واحداً وشكرتها، ثم رحنا نتجاذب أطراف الحديث. أخبرتها بأنّي أفضّل هذا النوع من الكيك مُذ كنت في العراق، حيث كانت أمي تصنعه لنا في الأعياد والحفلات هناك. توقّفت السيّدة هيلينا عن مضغ الطعام، حالما سمعتْ بذلك، واتسعت عيناها، ثم حكّت خدّها بطرف إصبعها، وتوجّهت لي بالسؤال: «في العراق؟! هذا

يعني أنّك تعرف سعيد ينسين، الكاتب النرويجي من أصول عراقية!» فقلت: «وكيف لا أعرفه؟! كنت من المواظبين على قراءة ما ينشره في جريدتكم، وقد ترجمتُ بعض قصصه لصالح مجلة الشراع العربي.» ثم رحت أعدّد تلك القصص، مسترسلاً في الحديث عن ينسين ومرارة السخرية في حكاياته. أخبرتها بقصة الطير الذي فقد صوته، أولى ترجماتي له، وسيّد الخراف، وثلاثة على الطريق، وقصص أخرى متناثرة هنا وهناك. كانت هيلينا تستمع إليّ باهتمام بالغ، محاوِلةً إنهاء طبقها على وجه السرعة. أخبرتني من بعد ذلك بأنّ ثمّة ما ينبغي لي رؤيته حالاً. طلبت مني أن أرافقها إلى مكتبها في الطابق الثاني لمبنى الجريدة. فعلتُ دون أن أسأل. دلفنا إلى المكتب مسرعَين. أخرجتْ من الدُرج مظروفاً أسمر، ووضعته فوق المنضدة. قالت بأنّ فيه مخطوطة نرويجية مكتوبة بخط اليد، تنوي نشرها، لكنّها انتظرت كل هذا الوقت من أجل أن تعثر على مترجم للعربيّة أولاً. أخرجتها من الظرف ولوّحت بها قائلةً: «إنّ حكاية سعيد ينسين هذه، ينبغي أن يقرأها أبناء لغته قبل غيرهم، لأنّ فيها ما فيها.» ثم مدّت بها نحوي، مقترحةً عليّ القيام بترجمتها إلى العربية. تناولتُ المخطوطة من يدها، وشرعتُ على الفور بتقليبها وقراءة الصفحات الأولى. وبعد عامين كاملين، وبفضل خطأ ساعي البريد ذاك، تمّت الترجمة فكان هذا الكتاب.

المترجم

أعرف بأنّ عليَّ أنْ أموتَ حيث ولدتُ

لكنْ قبل ذلك، دعوني أكمل ولادتي.

سركون بولص

كان يقف على ساقٍ واحدة مثل تمثال أصابته شظية تائهة. لم تكن ملامحه بادية للعيان بما يكفي، إذ يعتمر قبّعة من القش تنسدل على عينَيه، ويغطّي ذقنه بخرقةٍ بيضاء، عليها آثار دماء باهتة. كان طويل القامة، نحيفاً، بأنفٍ طويل يكاد يسقط في فمه، وذقن أشعث يبرز من تحت الخرقة. حاولت الاقتراب منه، لكنّه أشار نحوي بغصن الآس الذي يتكئ عليه ألّا أقترب. كنّا نقف متقابلَين على سكّة قطار مهجورة ينبت الدغل من بين أضلاعها الصدئة. في السماء غيوم كثيفة تقترب من بعضها وتلتقي لتحيك فوقنا مظلّة رمادية كئيبة وخانقة، وفي الجوار صوت غراب تحمله الريح وحفيف أشجار لا وجودَ لها من حولنا. ليس هناك سوى سكّة القطار المنسيّة تلك، وبعض أسراب من النمل التي كانت تحمل قوت شتائها وتغطس في ثقوب سوداء وعميقة في جوف الأرض. تنحنح أخيراً وقال بصوت يشوبه الأسى: «أين قبري؟» اقتربت منه بغية التعرّف على ملامحه، لكنّه تراجع إلى الوراء تاركاً خلفه بُركة من الدماء. كان يملك ثقباً واسعاً في جسده، يمتدّ من تحت عنقه حتى سُرّته، وكانت ثيابه البالية والممزقة والمدمّاة تكشف عن عطبٍ جسيم في الجزء السفلي منه.

لقد بدا بساقه الوحيدة، والملتصقة ببطنه دون عظمة حوض، مثل برجٍ أسقطه إعصار عنيف ثم أعاد تركيبه قردٌ ثمل، أو حائطٍ هدمته قذيفة عمياء وشيّده شيخٌ كسيح. شعرتُ بدوارٍ أفقدني السيطرة وأسقطني إلى الأرض. حاولت النهوض مجدداً بلا جدوى، إذ تراجع أبي إلى الوراء كثيراً، بعد يأسه من معرفة الجواب، وابتعد. مددتُ يدي نحوه بحركة رجاء ليصطحبني معه، فتلاشى في الأفق مثل الدخان وغاب. ثم أقبل غرابٌ يصفق بجناحَيه، ويقبض بمنقاره على غصن الآس اليابس ذاك، رماه نحوي وابتعد هو الآخر. أمسكت بالغصن، اتكأت عليه ونهضت، كان قويّاً بما يكفي لإعانتي على النهوض. شرعت بالسير في الاتجاه الذي سار عليه أبي من السكة الحديد وغاب. كنت أريد اللحاق به وإزالة الخرقة عن وجهه، لكنّ قطاراً مسرعاً جاء في الاتجاه المعاكس، ودهسني.

انتبهتُ، كانت القهوة قد فاحت وأطفأت النار تحتها. دلقتُ ما بقي منها في الحوض، وأعدتُ تجهيز فنجان آخر. لم تكن هذه المرة الأولى التي أرى فيها أبي، إذ اعتاد أن يزورني بين الحين والآخر، ويظهر أمامي كلما شردتُ وتاه عقلي. لكنّه، رغم زياراته المتكررة لي، لم يكشف ولو لمرّة واحدة عن وجهه. كانت ملامحه تبدو متلاشية على الدوام، وهيئته غير مكتملة. زارني ذات مرّة في شُرفة الشقّة مقطوعَ الرأس يخرج الصوت من ثقب أسود في عنقه، وحين اقتربت منه تلاشى مع الريح. وفي وقت لاحق ظهرَ أمامي في محطة المترو مشطوراً إلى نصفين لا يشبه

احدهما الآخر. ورأيته في أحد المساءات نائماً قربي على هيئة جمجمة بشريّة غير مكسوّة بالجلد. لقد رأيت أبي كثيراً، دون أن أراه. ولكم توسّلته أن يكشف لي عن وجهه لكنّه، واحسرتاه، لم يفعل!

في الواقع، أنا لا أعرف شكل أبي من قبل. لم أرَه يوماً في حياتي، ولا أحتفظ له بصورة واحدة. لقد غاب في سراديب الضياع قبل مجيئي إلى الدنيا، وأحرقتْ أمي، ليلة القبض عليه، كل كتبه وأوراقه ومذكّراته وألبومات صوره. هي من أخبرتني بذلك. قالت لي في إحدى الليالي، وبصوتٍ خافت، بأنّها أوجرتْ تنّور الطين في ساعة خوف وفزع، وأحرقت كل ما يتعلّق بأبي ويدلّ عليه، وكل ما تخشى عليه منه. لقد ألقمتْ أمي التنوّرَ ذاكرةَ عمرٍ بأكملها، لتحيلَها النارُ اللعينة إلى رمادٍ تافه، ويضيع أثر أبي كما ضاع مصيره. كان معارضاً يساريّاً مطارداً من قبل السلطة. أُدخل إلى السجن مرات عدة، وأُفرج عنه. وكان في كل مرة يخرج وأسنانه قد نقصت واحدة، مما جعله، رغم شبابه، يملك في كلا فكّيه أسناناً صناعية مربوطة بواسطة سلك معدني. لكنّه لم يعد إلى البيت في المرة الأخيرة. قالوا بأنّه مات تحت التعذيب، وقالوا بأنّه أُطعِم حيّاً للكلاب، وقالوا بأنّه قُتل ورُميَ في نهر دجلةَ الكتوم، وقالوا بأنّه دُفن سرّاً في مقبرة ما.. لكنّهم لم يسلّمونا جثّةً، ولا عظماً، ولا حتى شهادة ترحيل من الدنيا على أقل تقدير. أما أمي فقالت لي وأنا في الخامسة من عمري: «أبوكَ عند واحد كريم.»

وعندما سألتها عمّن يكون هذا «واحد كريم» زجرتني دون أن توضّح الأسباب!

دلفتُ إلى السرير بعدما انقضى من الليل ثلثاه. أطفأت النور، ووضعت الشرشف على وجهي تملّقاً لإغفاءة قصيرة، لكنْ دون جدوى، فقد كانت صورة أبي، بجسده المعطوب، قد التصقتْ بجفنَيّ من الداخل، وأحالت النوم معها إلى أمنية مستحيلة المنال. رميت الغطاء وذهبت إلى غرفة المكتبة. استقبلني البرواز الفارغ المعلّق على الجدار. شعرت بأنّه مائلٌ إلى الأسفل قليلاً. وضعت سبّابتي تحت ركنه الأيمن، ودفعته إلى الأعلى برويّة حتى اعتدل. جلست بعد ذلك خلف جهاز الحاسوب محاولاً طرد شبح أبي من رأسي. درتُ بين أزقة الإنترنت يميناً وشمالاً. عثرت في النهاية على قصيدة بصوت السيّاب، كانت منشورة في إحدى المنتديات الأدبيّة: «يمدّون أعناقهم من ألوف القبور يصيحون بي أن تعال.. نداء يشقّ العروق يهزّ المشاش يبعثر قلبي رمادا.. أصيل هنا مشعل في الظلال.. تعال اشتعل فيه حتى الزوال.. جدودي وآبائي الأولون سراب على خدي تهادى..» أُطلِقُ آهةً، ويمضي السيّاب هادراً بصوته الحزين: «وتدعو من القبر أمي.. بُنيّ احتضنّي فبردُ الردى في عروقي.. فدفّئْ عظامي بما قد كسوت ذراعيك والصدر واحمِ الجراح..»

يا الله! ما بال صوت القبور لا يفارقني الليلةَ؟! قلت في سرّي وأنا أهمّ بالإغلاق، لكنني تذكرتُ بأنّي لم أفتح البريد الإلكتروني منذ السبت

الماضي. كان أسبوعاً مرهقاً إلى حد لم يتسنّ لي فيه الجلوس خلف الحاسوب وتصفّح البريد. فتحت خانة الرسائل الواردة، فوجدت بضعة إيميلات، لم تكن بالغة الأهمية في الواقع. كانت تنبيهات لدفع فواتير متأخرة، دعوة للمشاركة في اعتصام عمّالي من أجل زيادة طفيفة في الرواتب، وإعلانات لشركات تجاريّة حديثة.. لكنّي في النهاية عثرت على رسالة طارئة من بغداد تحمل تاريخ السبت الفائت:

مرحبا سعيد..

هنالك أمر هام وغير قابل للتأجيل

عليك أن تعود إلى بغداد فوراً.

تحيات

عبير

منذ أربعة عشر عاماً وأنا منسيّ هنا، أمارس حياة العزلة مثل دُبٍّ أرمل. الشتاء طويل في هذه البلاد ومظلم، يندف الثلج فيه بسخاء كبير، بينما الصيف أقصر من رشفة شاي على قارعة الطريق. لقد اعتدت عندما يرنّ المنبّه، وقبل دخول الحمام، أن أفتح النافذة كي أرى ما فعله الثلج النادف منذ الليل. وكنت في كل مرّة أشاهد المنظر ذاته؛ رداءً أبيض يغطّي جسد المدينة، وعمّالاً يغادرون دفء مناماتهم، مثقَلين بالمعاطف السميكة وأغطية الرأس المحاكة من الوبر، فأهزّ يدي متذمّراً وأغلق النافذة. عملي في البريد زاد المشقة ضعفَين، فمئات الرسائل والطرود يتوجّب عليّ تفريقها تحت ندف الثلج، في ساعات الفجر الباردات. لقد أيقنت بأنّ من يعمل ساعيَ بريد في بلد مثل النرويج، يعرف جيّداً طعمَ الجحيم وغضبَ السماء، لا سيّما في الشتاء، حيث البرد والصقيع والانزلاق اللاإرادي. لكنْ، في حالتي لم تكن السماء وحدها غاضبةً منّي، بل رئيستي في العمل كذلك. كاري سولبيرغ، هذه العجوز الستّينيّة النحيلة، ذات البشرة القرمزية المتجعدة، تكرهني بالفطرة، وتشعر حين تراني بأنّ عقرباً قد

...ها في ما بين فخذيها! كانت لا تطيق سماع صوتي، وتشيح ...ها عني حين أحدّثها، وكأنّي ضفدع أجرب مثير للاشمئزاز. "...ة كاري، التفتي إليّ، رجاءً." لا تردّ، وتتظاهر بعدم الإصغاء ... في ما يخصّ العمل. وعندما أخطئ في عنوان من العناوين، ...عني كلاماً يسمّ البدن، ويهيج القولون، ويزيد من تساقط الشعر لدى الكبار.

قالت ذات مرّة لزميلي دانيال: «اسمع دانيال، أنا لا أطيق هذا القرد المدعو سعيد، وعليك أن تبتعد عنه في ساعات العمل ما استطعت.» ومع أنّي أجمل من القرد بكثير، إلا أنّ السؤال الذي كان يهرش جلدي كلما رأيتها غاضبة: لماذا يا ترى تكره هذه المرأة القرودَ إلى هذا الحد؟! ولماذا لا تحتمل النظر في وجوههم الأليفة؟ أنا، مثلاً، لم أفعل لها ذات يوم ما يغيظها، رغم أني أشتهي ذلك، ولم أقصّر في عملي معها، فما السرّ يا ترى وراء كل هذه الكراهية؟! لقد ظننتُ للوهلة الأولى بأنّ لها معي ثأراً تريد استيفاءه، لكنّي عرفتُ، مع الأيام، بأنها لا تحب الغرباء بشكل عام، ولا تطيق النظر إليهم. بل أيقنتُ بأنّها تُنزلهم جميعاً، حتى وإن تمتّع أحدهم بعينَين خضراوَين، منزلةَ القرود. وأيقنت كذلك بأنّي سأبقى، مهما أخلصت في عملي، مثيراً للشك والشبهة لديها، مما دفعني في النهاية إلى العزلة. صرت أحضر في السابعة صباحاً لاستلام البريد، أضعه في السيّارة الصغيرة وأدور به على العناوين حتى الرابعة عصراً، دون أن

أكلّم أحداً أو ألتقي بأحد. هكذا جعلتني كاري سولبيرغ وحيداً مثل مجذوم.

- 3 -

انقشعت الظلمة أخيراً، وبدأ الفجر يرسم على لوحة الكون خيوطه. لم أنم ساعة واحدة. كان القلق ينخر عظمة رأسي، كما تفعل الأَرَضَة في الخشب، وكنت أتقلّب في السرير مدوّراً رسالة عبير الأخيرة: «عليك أن تعود إلى بغداد فوراً.» ماذا عساي أن أفعل هناك؟! لا بد أنها تمزح. كتبت لها مستوضحاً، لكنّها لم ترد، فالإنترنت لديها يعمل ببطاقات التعبئة المحليّة، ويسير بسرعة سلحفاة بدينة. ذهبت إلى المطبخ، شربت قدح ماء، وعدت إلى السرير.

منذ أن عرفتها لم تكتب لي عبير رسالةً مبهمة مثل هذه. كنت جالساً خلف شاشة الحاسوب ذات يوم، أقرأ الأخبار على أحد المواقع الإلكترونيّة، فوقعتْ عيناي على تقرير صحفيّ مثير عن المقابر في العراق. كان ذلك قبل عامين تحديداً. تراءت لي، حين قرأت التقرير، جثة أبي نائماً على ظهره في حفرةٍ يكشف عنها القمر، فندهتُ عليه، لكنّ سرب خفافيش سوداء حجب عنه الضوء، وتلاشى. تتبعت اسم الصحفيّة، كاتبة التقرير، فأوصلني عند موقعها الشخصي على الشبكة العنكبوتية السخيّة. وبكبسة زرّ واحدة تقافزت أمامي

البيانات الشخصيّة كأسماك السلمون في النهر: عبير كاظم، إعلاميّة فوتوغرافيّة من مواليد بغداد، حاصلة على شهادة البكلوريوس في الإعلام، تحترف التصوير، ولها مشاركات محليّة وعالميّة، وتعمل مراسلة صحافيّة في قسم الشرق الأوسط لمحطة بي بي سي الأخبارية.

«عظيم!» هتفتُ، ثم نقرت على خانة الصور الشخصية، فصدرت منّي شهقة كتلك التي يطلقها المراهقون حين تمرّ من أمامهم فتاة جميلة. لقد كانت، مَن احتلّت قلبي منذ الشهقة الأولى وجلست فيه وتربّعت عليه، حسناءَ متوسطةَ الطول، رشيقةً كنبتة أوركيد، وديعةً مثل حمامة. لها عينان عسليّتان، وشعرٌ تمريّ قصير، بينما يتوسّط خدّها الأيسر خالٌ يظنّه الطير حبّة خردل. كانت ترتدي في كل صورها قميصاً وتنّورة رماديّة تحاذي الركبتين بمسافة مللي متر واحد، فتبدو مثل طالبة أنيقة بزيّ جامعيّ. نسخت عنوانها البريدي، وبعثت إليها برسالة فوريّة وعاجلة:

«مساء الخير..

أنا سعيد، عراقي في بلاد الثلج، أستطيع أن أجزم، وبأيمان مغلّظة لو شئتِ، بأنّي سأتحوّل من سعيد إلى أسعد فيما لو رددتِ على رسالتي هذه.»

فجاء الردّ في اليوم التالي:

«أهلاً بك.. أسعد.»

ومنذ ذلك الحين، ونحن نتبادل الرسائل والقُبل الإلكترونيّة العابرة للقارات.

زعق المنبّه عند السادسة صباحاً، فأسكتّه. كان عليّ إطفاؤه في الليل، إذ لم تكن لي حاجة به، فإجازتي النصفيّة قد بدأت وسأفارق وجه كاري سولبيرغ لثلاثة أسابيع كاملة. حاولت إكمال نومتي، لكنْ دون جدوى، فبعض الرسائل من شأنها أن تفتح باب السهاد وتحطّم درع الطمأنينة. لماذا تريد منّي عبير أن أعود على الفور يا ترى؟! لمَ الآن بالتحديد؟! لقد بدأ موسم العودة إلى بغداد في نيسان 2003م. غادر حينها آلاف العراقيين منافيهم، عائدين إلى هناك بمحض إراداتهم. منهم مَن كان يلهث خلف السلطة مثل كلب صيد شرِه، ومنهم من عاد ليستثمر أمواله في مشاريعَ تبيضُ له ذهباً صافياً بلا ضرائب، ومنهم من ظنّ بأنّ الوطن صار واسعاً بما فيه الكفاية لحمله. كنت أراهم يحزمون حقائبهم، تاركين خلفهم سنوات ثقيلة من الغربة، لكنّي لم أفكر يوماً بذلك، ولم أتساءل ولو على سبيل الفرض: «لماذا لا أعود إلى الديار؟» فالأمر محسومٌ لديّ مبكّراً.

أعلم جيداً بأن عبير تعشق بغداد حتى في خرابها الأخير، ولا

...ر في الرحيل عنها، لكننا لم نتحدّث عن أمر العودة من قبل،
ام تسألني، ولو لمرّة واحدة طوال عامين، عن ذلك. ما الذي جرى
الآن بحق الله؟! دفعتُ الغطاء عن جسدي وذهبت إلى الحمّام.
ان المطر في الخارج يهطل بغزارة، رغم أننا في الصيف. أخرجت
ادنة الحلاقة من الدُرج وبدأت بجزّ لحيتي. كانت طويلة ومبعثرة
قبيحة. تمعّنت في المرآة، على غير العادة، فرأيت جيشاً أبيضَ قد
أعلن الاستنفار لغزو هامتي. كان عارضاي على وشك أن يصطبغا
باللون الرمادي، بينما يختبئ الكثير من الشيب تحت مفرقي. ويلي!
ما زال الوقت مبكراً على بياض الرأس! من أين جاء كل هذا الشيب،
ولماذا لم أرَه من قبل؟! ثم لماذا اليوم بالذات أصبحتُ مهتماً
بحساب الخصلات البيضاء في رأسي؟! هل كان لرسالة عبير علاقة
بذلك؟ لا أدري.

أكملت طقس الحلاقة والاستحمام، وخرجت عارياً نحو المطبخ. العري هو الحسنة الوحيدة للعيش وحيداً. أن تكون وحدك فهذا يعني بأنك تستطيع أن تتعرّى متى تشاء، وتترك الهواء يداعب جسدك. غسلت الأطباق المتراكمة منذ أيام في الحوض، ثم أخرجت الخبز من الفريزر ووضعته في الفرن. شطفت إبريق الشاي وملأته بالماء وأشعلت النار تحته. رميت في جوفه حبّتين من الهال، وانتظرته حتى بدأ بالغليان. وضعت فيه ثلاث ملاعق صغيرة من الشاي السيلاني الأصيل الذي يبيعه كاكا سيروان، صاحب البقالة الشرقية في طرف الحيّ، وأبعدته عن النار كي يهدر على مهل.

غادرت المطبخ من بعد ذلك باتجاه غرفة النوم. ارتديت ثيابي ورششت ما خلف أذنَيّ بعطرٍ خافت. أعدت الزجاجة إلى مكانها ونظرت في المرآة. كانت شواطئ السواد تحت عينيّ تتسع، بينما تثير خصل الشيب قلقي. فتحت الدُرج وتناولت مقصّاً صغيراً. قصصتُ شيبةً رفيعةً تدلّت فوق جبهتي، وأخرى تنام في شاربي. قصصتُ ثلاثةً يختبئن في عارضي، ثم أدنيت المقص من مفرقي، كي أوقف زحف الشيب اللعين نحوه، لكنني شعرت باللا جدوى، فمقص صغير كهذا لا يستطيع أن يمحو ما خطّه الزمن والغربة على وجهي. «كل شيء واضح، لقد كبرتَ يا سعيد.. اليوم في الغربة يعادل ثلاثة أضعافه.» قالت المرآة، ولم أكترثْ، تركتها تهذي وخرجت.

كانت رائحة الخبز تفوح من المطبخ وتملأ الصالة، أما الشاي فقد أصبح جاهزاً. أخرجت بيضتَين من الثلاجة. سلقتهما بالماء، وقطّعتهما إلى شرائح مستديرة. وضعت جنبها قطعة جبن مالحة وخمس زيتونات. لم أكن قاصداً للعدد خمسة بالطبع، لكنّه المتبقي في علبة الزيتون. أنهيت إفطاري قبل الساعة السابعة، وجلست بكامل أناقتي أمام شاشة التلفاز. أمسكت بجهاز التحكم وبدأتُ بالتقليب بين القنوات. لم يكن يستهويني التسمّر أمام الشاشة من قبل، لكنّها عادةٌ أدمنت عليها منذ أن بدأت طبول الحرب تُضرب قبل عامين، واسم بغداد يتصدّر نشرات الأخبار. كان العالم وقتها منشغلاً بنا، وكنت أمضي الليل كلّه أقلّب القنوات، ملاحقاً الأخبار العاجلة التي تظهر

في أسفل الشاشة. شاهدت، وأنا أجلس على ذات الكنبة في الصالة، مغادرة مفتشي الأمم المتحدة بغدادَ، واستمعت لخطاب الرئيس الأمريكي ممهلاً نظيره العراقي ثمانية وأربعين ساعة لمغادرة العراق، أو مواجهة الحرب. ثم وبعد انتهاء المهلة قرأت، في الشاشة ذاتها، خبراً عاجلاً يقول بأنّ ساعة الصفر قد بدأت، وأنّ صواريخ التحالف انطلقت لقصف أهداف ستراتيجيّة في بغداد. في ذلك اليوم اتصل بي صديقي، جمال سعدون، ليبشّرني بالخبر وكأنّهم أذاعوا ثبوت الرؤية الشرعيّة لهلال عيد الفطر السعيد. كان فرِحاً وهو يشاهد ليل بغداد يستحيل نهاراً، لكثرة ما ينفلق فيه من قنابل ذكيّة!

«هل رأيتَ ما جرى يا سعيد؟! ألم أقل لك بأنّ هذا اليوم سيأتي لا محالة؟ لقد انتهى كل شيء.. تهانينا، تهانينا.»

«ما الذي انتهى يا جمال؟! وعلامَ التهنئة؟! البلد يحترق يا رجل، والناس يموتون!»

«لن يموت أحد، صدّقني، هم يعرفون عملهم، المهم أننا سنتخلّص من الطاغية أخيراً، ويغدو العراق جنّةً مثل لاس فيغاس.»

لا أدري من أخبره بذلك! كان يقسم بأنّ شركاتٍ عالميّة رصينة تقف على الحدود بانتظار إشارة للدخول، وأنها ستقلب حال البلد إلى جنّة على غرار جنّة لاس فيغاس الأمريكية!

«كلامك صحيح، سنتخلّص من الطاغية، ولكنْ؛ يغدو العراق جنّةً مثل لاس فيغاس؟! هل هذه نكتة الموسم؟!» عقّبتُ بعدما

انتهى صاحبي من سيل الأيْمان المغلّظة على ما يقول. لكنّ كلامي لم يعجبه، فأنهى المكالمة وأغلق الهاتف دون وداع. داهمني حينها صداع شديد، تركّز كالعادة في مؤخرة رأسي، واضطرّني لزيارة الطبيب.

ـ 5 ـ

كانت المدينة تتزيّن لاستقبال أعياد الميلاد، بينما ندف الثلج تهبط ببطء، فتصنع مع الأضواء طقساً روحانياً لم أشاهده من قبل. وقفت بمعطفي الصوفي الطويل في محطة انتظار الباص، قاصداً الذهاب إلى المكتبة. كنت أروم استعارة كتاب عن التصوير الفوتوغرافي، الفن الذي أعشقه رغم قلّة استعمالي للكاميرا، وكسلي عن إبدال بطاريتها التي شاخت منذ زمن طويل. وصل الباص أخيراً، ألقيت التحية على السائق، ثم مددت يدي في جيب المعطف لإخراج ثمن التذكرة. لكنّي لم أجد المحفظة. تذكّرت بأنّي نسيتها على الكومدينو في غرفة النوم، فلطمتُ جبهتي عندئذٍ، وهتفتُ متذمّراً: «خرا بالكائنات.» ضحك السائق لسماعه ذلك وقال: «لا عليك.. اركبْ.» ثم دفع الأجرة من جيبه وقطع لي تذكرة. كان شابّاً بسحنةٍ عربيّة مميّزة، في الثلاثينيّات من العمر، متوسط الطول، يمتلك عينَين سوداوين غائرتين في وجه نحيف، ولحية خفيفة ومشذّبة.

...ته وجلستُ في المقعد المباشر خلفه. ضحك كثيراً وهو يكرر ...ه الاستياء ذاتها «خرا بالكائنات» معقّباً: «لقد ذكّرتني بكلمات ...ا يا رجل.» فعرفت بأنّه عراقي، كنت أظنّه فلسطينيّاً! تجاذبنا ...ها أطراف الحديث، وتبادلنا أرقام الهواتف، فأمسى سائق ...اص المهاجر، جمال سعدون، العراقي الوحيد الذي يعرف رقم ...ي في شبه القارة الإسكندنافيّة.

...ان جمال، ومنذ أن عرفته، يعدّ الأيام بلا كلل لسقوط النظام ...دل السلطة في العراق. لم يساوره الشك يوماً ولم ييأس من ...ء تلك اللحظة. وعندما جاءت، راح يرقص حتى الصباح من ...رح والسعادة، فهو واحد من ضحايا ذلك النظام القمعيّ الذي لا تُعدّ ولا تُحصى ضحاياه. تخرّج من كليّة الهندسة في الجامعة المستنصريّة، وعمل مهندساً في أمانة بغداد. تقدّم، بعد تثبيت ...ميه في الوظيفة، لخطبة ابنة الجيران، وأوشك على مغادرة قوائم العزّاب. لكنّ إطالته لذقنه في تلك الأيام وارتياده للمساجد دفع المخبرين السرّيين وكتبَة التقارير، المنتشرين كالجراد في الحقل، ليحسبوا عليه أنفاسه، ويزوّدوا مراجعهم بالتقارير السريّة المليئة بالمكائد والتلفيق. قُبض عليه في النهاية بتهمة الخيانة وضاع خبره ...ثل قط في مغارة كلاب.

أشارت موظفة المكتبة نحو لافتة نحاسيّة مستطيلة، طُبع عليها بالحبر الأسود المزجّج: فوتوغراف. كانت معلّقة على رفّ كبير يحمل على أضلاعه كتباً ومجلاتٍ نادرة عن فن التصوير. ذهبت هناك، تناولتُ واحداً منها، وجلست حول المنضدة لأجل نزهة تصفّح سريعة. في الصفحة السابعة والعشرين من الكتاب شاهدت صورة بالأسود والأبيض لطائرة شراعية شاركت في حرب ڤيتنام، كما هو مكتوب في الشرح تحتها. وكان قائد الطائرة يرفع علامة النصر بعد إفراغه لحمولة الموت فوق رؤوس المساكين. تذكّرت صوت أول طائرة حربيّة سمعته في حياتي. كنت حينها في التاسعة من عمري، أداعب الكرة في الزقاق مع رفاقي، فدوّى في الأرجاء صريخ صفّارات إنذار جعلنا نهرع خائفين نحو بيوتنا. دخلت البيت مسرعاً واختبأت تحت عباءة أمي بانتظار وقوع الكارثة. حلّقتْ بعد لحظات طائرات حربيّة بارتفاع منخفض، كاد صوتها يفلق رأسي. أغلقت أمّي بكلتا يدَيها أذنَيّ وراحت تردّد: «برداً وسلاماً.. برداً وسلاماً.. برداً وسلاماً..» حتى ابتعدت الغارة وذاب صوتها في

السماء. نظرتُ إلى عينَيّ أمّي، فرأيت فيهما خوفاً سيطول أمده. سحب أحدهم في الأثناء كرسيّاً وجلس حول المنضدة، فانتبهتُ.. كنت محتضناً رأسي بكلتا يدَيّ، وأردّد بلا شعور: «برداً وسلاماً.. برداً وسلاماً.. برداً وسلاماً..»

ـ 7 ـ

الخيانة تهمة ذائعة الصيت يردّدها الأوغاد أكثر مما يردد السكارى أغنية الأطلال. «أنتَ خائن» اتهام جاهز وسريع التحضير مثل طعام الأندومي. لكن من شأن هذا الأندومي العربيّ بامتياز أن يصطحبك إلى حبل المشنقة ليتدلّى رأسك هناك تاركاً العار يلاحق من بقي لك في الحياة. الغريب في الأمر أنّ هذه التهمة اللعينة تُرمى بوجهك دون شرح أو تفسير، ودون حتى الحاجة لأن تعرف نوع خيانتك وما لونها وأين ومتى ولصالح من حصلتْ! كل الحكاية أنّ وغْداً قال عنك «خائن» وانتهى الأمر. لم يبقَ لديك حينها ما تفعله، سوى التوقيع بانصياع تام على الاعتراف بالخيانة، ثم الاستعداد بقلبٍ جامد للسير نحو المقصلة وتحمّل العار الأبدي.

ضاع خبر «الخائن» جمال سعدون على أهله، إذ ظلّ قابعاً في أقبية الشعبة الخامسة عامَين كاملَين، لم ير الشمس فيهما إلا مرتين؛ الأولى في موسم قصع القمل الشتويّ، والثانية حين انفجرت الزائدة

الدودية في بطنه ونقل إلى المشفى لأجل استئصالها. لكنّه رغم ذلك كان محظوظاً، فقد أُفرج عنه ضمن عفو رئاسي شامل وعاد إلى أهله. يقول بأنّه حين خرج من السجن لم يتعرّف عليه أبوه، الحاج سعدون، الذي كان بانتظاره عند البوّابة الرئيسة هناك. فقد خسر، بسبب الجوع والخوف والإهانة، ثُلثَي وزنه، وأمسى شاحباً كثمرة الليمون. لقد أفزعته نظرات الحيرة في عينَيّ أبيه، فاقترب منه كثيراً وقال: «يابه ما عرفتني؟ أنا جمال.» ليسقط الرجل مغشيّاً عليه من هول الصدمة، ويسقط من فوق رأسه العقال. أما الأم الواقفة خلف باب الدار، تراقب الطريق، فأقامت مناحة على الثلث المتبقي من الابن العائد. لقد بكت المرأة وصرخت ولطمت وتمرّغت في الأرض وهي تشاهد الشبح القادم إليها من سراديب الجوع. كانت، مع كل لطمة على صدرها وجبينها، تشتم من فعل به ذلك بلا خوف ولا حذر. اضطرّ الأب في آخر المطاف إلى إسكاتها بالقوة خشية عودة رجال الأمن والقبض على ابنهما من جديد: «كفّي عن الصراخ والشتائم يا امرأة.. فللجدران آذان.»

كانت الشتائم يومذاك همساً لا ينبغي لها أن تُسمع، فالجدران تملك آذان الوشاية، كما يعتقد الكثير من الآباء. لكنّ الابن العائد لم يروِ القصة كاملةً لأبوَيه. هو من أكّد لي ذلك، ولو فعل لتحطّمت حتى الجدران من الصراخ. لقد أخبرني بالفصل المثير منها. قال بأنّ ضابط التحقيق كان يتسلّى بتعريته وربْط سلك الكهرباء بقضيبه، مما جعله يخسر رجولته بشكل نهائي.

« هذا مستحيل.. لا بدّ أنّك تمزح!» قلتُ له باستغراب شديد.

«بالله عليك، سعيد؟ أيصحّ المزح في هكذا أمر؟!» أجاب.

لم يكن الأمر مزحةً كما ظننتُ، ويا لغبائي، فمن يمزح في ما يخصّ ، جولته؟! لقد تأكد لجمال بأنه فقد قدرته الجنسية تماماً مذ كان في السجن. إذ دأب المحقّق حينها على ربط السلك بقضيبه مردّداً: «لن ،خرج من السجن قبل أن أُميتَه لك.» وقد حقّق ابن العاهرة وعيده، ،أطنان الفياغرا التي التهمها جمال بعد خروجه من السجن لم تستطع ،منحه لحظة سعادة واحدة برفقة امرأة.

- 8 -

في التاسع من نيسان لعام 2003م اخترقت رافعة أمريكية ساحة الفردوس، وسط تجمهر العشرات من المدنيين، وأسقطت تمثال الدكتاتور، في إشارة إلى سقوط بغداد وبسط السيطرة عليها وعلى العراق بالكامل. شرعت بعد ذلك الفضائيّات العالميّة بنقل صور السلب والحرق والتخريب. كانت كتائب من البلطجيّة والسرّاق والحواسم، تغير على دوائر الدولة لنهبها وهرس ما تبقى منها، تحت مرأى ومسمع جنود المارينز الأشدّاء. لقد بدا الأمر وكأنّهم تحالفوا لإسقاط بلدٍ وليس نظاماً. اتصل بي وقتَها جمال سعدون. أخبرني عبر الهاتف بأنّه قرّر العودة إلى بغداد ولن ينتظر يوماً واحداً بعد الآن. قال

بأنّه عائد للمساهمة في بناء الوطن، على حد تعبيره. لم أعترض على قراره ولم أعقّب حفاظاً على وشيجة الصداقة بيننا. لكنني مازحته، فالمزاح طريق آمن لإيصال الفكرة بلا خسائر:

«خلاص يا باش مهندس! قرّرتَ الذهاب إلى لاس فيغاس؟»

«تستهزئ جنابك؟!» ردّ متكلّفاً ضحكة خفيفة لم تُخفِ امتعاضه.

«لا تزعل منّي، أنا أمزح معك يا صديقي. المهم، اعتنِ بنفسك رجاءً، وسلّم لي على بغداد.» قلت مودّعاً.

«حسناً، سأفعل.. إلى اللقاء.» أجاب قبل أن يغلق سمّاعة الهاتف.

- 9 -

ليس لي في بغداد سوى أمّي وخالي إبراهيم، الذي لم أكن أطيقه. كان حزبياً فارغاً بشاربين كثّين، يرتدي البدلة الزيتوني، ويعلّق في حزامه مسدساً من عيار 9 مللم، موسوماً بصورة القائد العربي طارق بن زياد. وكان، كباقي الحزبيين آنذاك، يمتلك كرشاً عظيماً يتدلّى أمامه مثل بالون مملوء بالماء، ويتأبّط جريدة لا يقرأها في العادة.

«وصل بابا عفلق.. استعدوا للخرط.» كنت أشاكس أمي كلما زارنا خالي إبراهيم، فتضحك. لقد أطلقتُ عليه لقب «بابا عفلق» لولعه باقتناء الكتيبات والدوريّات التي كان يكتبها مؤسس الحزب، ميشيل

مغلق، والتي لم يقرأ منها يوماً سطراً واحداً. كان مهووساً بتجميع
الك الكُتيبات، كهَوَسه بتعليق صور الرئيس وتأبّط الصحف الحزبيّة
المقيتة. لم أكن أطيقه، ذلك المتغطرس البغيض الذي لا يُجيد غلق
فمه أثناء الطعام، ولولا جلال، ابنه الذي يقاربني في العمر ويشاطرني
حب أمي، لما وطأت قدماي بيته.

في أحد النهارات دعاني جلال على الغداء، وكان الخال قد علّق
صورةً عملاقة للرئيس على طول الجدار في غرفة الضيوف. أتذكر
أنها كانت صورة ملوّنة ومؤطرة بإطار من الخشب المطليّ باللون
الذهبي، يظهر فيها الدكتاتور واقفاً، يصلّي قرب شبّاك أحد الأضرحة.
علّقتُ حينها على الصورة مازحاً:

«لا حول ولا قوة إلا بالله.. سيبكي الرجل من الخشوع!»

فردّ جلال متوسّلاً:

«سعيد، يا عزيزي، أرجوك كفّ عن السخريّة قبل أن يسمعك أبي.»

لكنّ أباه كان قد سمعني، لا أدري كيف، وصار يوبّخني لذلك.
دخلنا حينها في مشادّة كلامية جعلتني أغادر البيت قبل صبّ الطعام.
كان فظّاً، لا يراعي مَن حوله، وطالما كسر قلب أمي بنعته لأبي ورفاقه
بالخونة.

في الواقع، لم تقترف أمي ذنباً في حياتها سوى أنّها قرّرت أن
تكون أمّاً في العراق. كانت سيّئة الحظ، مما جعل حكايتها مع الفرح

أقصر من نكّاشة الأسنان. ابتدت الحكاية حين اختارها أبي شريكة لحياته، وانتهت بعد ثلاثة أشهر من زفافها إليه. في ليل ذلك اليوم، اقتحم عليهما البيت رجال مدجّجون بالسلاح ليلقوا القبض على أبي وينكّلوا به أمام عينَيها، ثم يُسحَل إلى السيّارة ويغيب، مخلّفاً في قلبها جرحاً لا يندمل. كان يعشقها ـ تقول أمي ـ رغم قصر الأيام التي جمعتهما تحت سقف واحد، ويحار كيف يصنع سعادتها. وكان، رغم موقفه العقائدي، يحترم ما تؤمن به وتصلّي له. أخبرتني في إحدى المرّات بأنّه كان عاشقاً للمقام، ومدمناً على الاستماع لناظم الغزالي، اعتاد أن يجلس في صحن الدار عند المساء ليدخّن السجائر ويترنّح مع موشّحاته: «أقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ.. أيا جارتا هل تشعرينَ بحالي؟.. معاذَ الهوى ما ذُقتِ طارقةَ النوى.. ولا خطرتْ منكِ الهمومُ ببالِ.. أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ.. على غُصنٍ نائي المسافةِ عالِ؟.. أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا.. تعالَي أقاسِمْكِ الهمومَ تعالي..» لكنّه، كان حين يراها تدلف إلى الحجرة لتصلّي، يوقف الأسطوانة عن الدوران ريثما تنتهي من الصلاة. ليس ثمة ما يجعل العقائد مقبولةً أكثرُ من الحب.

حتى أسطوانات الغزالي حرقتها أمي في حفلة محو الذاكرة تلك. لم يبقَ من ذكرى أبي سوى درّاجة هوائية هنديّة الصنع، وساعة يدويّة علامة أورينت. أُضطرّت أمي في النهاية لبيعهما مع جزء من أثاث البيت لتشتري بهما ماكنة خياطة سنجر، من تلك التي لا يخلو منها بيتٌ عراقي في ذلك الزمان غالباً. كنت أراها وهي تجلس

... السنجر موصلةً الليل بالنهار من أجل إعالتي، حالها في ذلك حال المئات من الأرامل اللواتي ابتلعت السجون أزواجهن وبقين ...اتٍ لذكراهم. أغلقت أمُ سعيد الباب بوجه كل من جاء لخطبتها، ...هنت الخياطة كي تضع أمامي خبزاً خالياً من طعم الذلّ. كانت ...ا مريرةً في بغداد، لم يمدّ لنا أحد فيها يد العون، بمن فيهم عمي إبراهيم الذي كان يتصرّف معنا وكأننا دمامل يخاف أن تصيبه العدوى.

لقد أدمنتْ أمي على تذكيري بحكاياتها مع ناصر مردان؛ المعلّم الذي خسر حياته لأنه لم يكتفِ بأن يحلم بالحريّة، بل تطاول وتحدّث عن حلمه بصوت مسموع. كانت تريد أن تملأ ذاكرتي بها، وتلصق على جفنَيّ صورته مسحولاً نحو حتفه لكي أحفظ عن ظهر قلب قاعدةً مفادها أنّ الحديث عن الحريّة في ظل نظام قمعيّ يشبه ممارسة الجنس على قارعة الطريق. «احذرْ، سعيد.. للجدران آذان.» كانت تردّد حتى حفظتُ الدرس جيداً ودوّنته في دفاتري وعلى معصمي وفوق وسادة نومي. رسمتُ لها على الجدار أُذُناً كبيرة تُغنيها عن ترديد مقولات التحذير. فعلتُ كل ذلك لأجل أن يهدأ قلب أمي ويطمئن بأنّ المأساة لن تتكرر مرّةً أخرى، لكنّي رغم ذاك لم أقطع لها وعداً بالكفّ عن السخرية من بابا عفلق وكرشه العظيم.

في ظهيرة يوم قائظ جاء بابا عفلق وبفمه بصاق كثير. قال، بعنجهيّة أعرفها، بأنّ أبناء الخونة لن يحصلوا على شهادة السلامة الفكريّة، وأنّي لن أُقبَل في الجامعة حتى يبيض الديك. وقبل أن أجيبه صرخ بوجهي بأنّه لن يتوسّط لي لدى رفاقه لأجل الحصول على تلك الشهادة. لقد أوشكت حينها أن أفجّ رأسه بالقدح، لكنّ أمي وقفت بيننا وأبعدتني عنه. خرج بعد ذاك متوّعداً وشاتماً أبي وأمي التي أجابته عند الباب: «الله موجود.» وانصرفت تلفّ حزنها بصدرها.

كنت قد اجتزت في ذلك العام امتحان البكلوريا/ الفرع الأدبي، وقدّمت أوراقي إلى كلية الآداب في جامعة بغداد. لكنّ مشرط السلامة الفكريّة كان من شأنه أن يذبح حلمي بدراسة الأدب. فقد وضع النظام على المتقدّمين للدراسة في الجامعات آنذاك شروطاً معرقلة، كان أهمها شرط السلامة الفكرية والولاء للثورة. بقيت على نار القلق أترقب الطريق، بانتظار قَدَرٍ يستمع لصلوات أمّي ويكسر ذلك الشرط. وفي النهاية، وبعد سبعة آلاف ركعة في

جوف الليل، صلّتها أمي لأجلي، طرق أحدهم الباب. كان مختار المحلّة، المدعو أبو شعلان، الذي بدا وكأنّه مبعوث القدر الرحيم. أخبرني بأنّ التزكية قد حصلت وانقضى الأمر. «كيف حصل ذلك؟» سألته، فقال بأنّه أجاب على طلب المعلومات، الذي أُرسل إليه من قبل الفرقة الحزبيّة بنفسه، وأنّه أكّد لهم بأنّي سليمٌ فكريّاً، ولستُ معادياً للحزب والثورة، فتمت الموافقة. يا لتفاهة الفِكر حين يحكم بسلامته وسقمه أبو شعلان المختار، ويا لتفاهة الحياة التي كنّا نعيشها في كنف بابا عفلق ورفاقه!

على أيّة حال، وصلت نتيجة القبول في كلية الآداب، وصرت طالباً في قسم اللغة العربيّة. كانت تلك المرة الوحيدة التي عرفت فيها طعم السعادة. لقد شعرت، وأنا أجتاز المراحل الجامعيّة بنجاح، بأنّ حلمي قد تحقق، وأنّ الطريق نحو عالم الكتابة بات قصيراً، لكنّ القدر أبدل رأيه قبل خط النهاية بقليل. ففي أحد الأيام كنت في طريقي إلى المكتبة لاستعارة بعض المراجع من أجل الشروع ببحث التخرّج. لحق بي أحد الزملاء منادياً: «سعيد.. سعيد.. من فضلك انتظرْ.» كان شخصاً حُشرياً، يدسّ أنفه في ما لا يعنيه، ولا أحد يطيقه، انتقل إلينا من جامعة أخرى بداية ذلك العام. أتذكر بأنه كان قد استعار منّي محاضرات الثقافة القومية، الدرس الكريه الذي حشرتْه وزارة التعليم العالي في المنهج لتلطّخ أذهاننا بخراء الحزب والثورة. «نعم، عزيزي.. تفضّل.» أجبته بعدما توقفتُ والتفتّ نحوه. أعاد لي المحاضرات مبتسماً:

«شكراً لك.. أضحكتْني الهوامش.»

«أيّة هوامش؟»

«الهوامش المكتوبة بقلم الحبر في الأسفل.»

كانت هوامش اعتباطية وضعتها لأجل التخفيف من ثقل دم المتن، فرددتُ ممازحاً: «هذا لأنّ درس الثقافة القوميّة أثقل من الضيف ليلة الدُخلة» وضحكنا.

استعرت ديوان المتنبي وكتاب شرح المعلّقات لابن الأنباري، وخرجنا من المكتبة. قال الحُشري في الطريق بأنّ المحاضرة التالية ستكون بعد ساعتين، داعياً إيّاي لشرب الشاي في الكافيتريا. وافقتُ، ولم أرفض عزومته، وانعطفنا نحو نادي الطلبة، ثم رحنا نتبادل الحديث مع شرب الشاي هناك. اكتشفت بأنّه شخص لطيف، وشعرتُ بالندم لأنّي لقّبته بالحُشري. تحدثنا عن الجامعة، ومشاريع التخرّج، والامتحانات التي بدأت تقترب، ثم عدنا إلى أستاذ الثقافة القومية المثير للسخرية. كان هذا الأخير يشبه خالي إبراهيم من حيث الكرش والشاربين والخواء الفكري. سخرتُ منه كثيراً، ثم شكرت مضيّفي على الشاي وذهبت نحو مكتب الاستنساخ لسحب بعض الأوراق. التقينا مراراً بعد ذلك، خارج قاعة المحاضرات، وراحت أسوار الحذر تتساقط مثل قطع الدومينو. نجح في النهاية باكتساب ثقتي، وأمسينا لا نتفارق. لقد أحببت فيه ظُرفه، إذ كان يحفظ آخر

النكات على الصعيدين؛ المحلّي والعربي. حكى لي في أحد الأيام، وكنّا جالسَين في نادي الطلبة، نكتةً عن الديكتاتور مقلّداً نبرة صوته، فضحكنا بصوتٍ منخفض خشية الوشاة. أتذكر بأنّي قلت له وأنا أضحك:

«جازاك الله على خفة دمك.»

فردّ بتلقائية مميزة:

«طيّب، سمّعنا واحدة، ولا تكن ثقيل الدم كدرس الثقافة القومية.»

فقلت:

«حسناً، اسمع هذه إذن: يقولون بأنّ الرئيس قد زار في أحد الأيام مزرعةً للدجاج، وهدّد بأنّه سيقوم بالتفتيش عن البيض، ومن لا يجد تحتها خمس بيضات، يقطع رأسها ويرميها إلى الكلاب. فارتعب الدجاج، وباضت كل واحدة خمس بيضاتٍ بالتمام والكمال. شرع بعد ذلك بالتفتيش، فكان كلما يرفع دجاجةً، يجد تحتها خمس بيضات، فيهزّ رأسه ويقول كلمته الشهيرة: (عفية). لكنه في النهاية رفع واحدة منهن، فوجدها قد باضت بيضةً واحدة فقط. قطّب عند ذاك حاجبَيه الكثيفين، وصرخ: ألم أقل خمس بيضات؟! فردّت المسكينة بصوت مرتجف: لكنّي ديك يا سيّدي الرئيس.»

قهقه صاحبي مردّداً: «حتى الدجاج لم يسلم منه.» وافترقنا.

من بعيد رأيت أمي تقف في محطة انتظار الباص. كانت ترتدي العباءة وتراقب الطريق. لقد تسلّلتْ عبر السطح إلى بيت جارنا، الحاج زيني، وخرجت من الباب الخلفي نحو الشارع، ثم انعطفت باتجاه الشارع العام حتى وصلت محطة الحافلات. أمسكتْ بيدي حين رأتني وجذبتني جانباً. أخبرتني وهي تلهث بأنّهم يبحثون عنّي، وأنّها سلكت ذلك الطريق السرّي خشية أن يتبعوها ويمسكوا بي، وأنّ عليّ أن أختبئ فوراً. لم أفهم منها جملة واحدة، كان يستولي عليها فزعٌ مثل ذاك الذي يصيب فريسة يطاردها نمرٌ صيّاد. ولم تكن، لفزعها، قادرة على إتمام الكلام بشكل واضح. كل ما وصلني هو صوت الطبل في صدرها. ناشدتها أن تهدأ، وأن تشرح لي الأمر كي أفهم. من هؤلاء الذين يبحثون عني؟ ولماذا عليّ أن أختبئ ما دمت لم أرتكب ما يوجب الاختباء؟! حاولتْ أن تتظاهر بالهدوء، لكن دون جدوى، فصوت قلبها كان عالياً، وشفتاها ترتجفان كجناحَي فراشة. فهمتُ في النهاية بأنّ مفرزةً من الأمن اقتحمت البيت

بحثاً عنّي، وأنهم لم يبارحوا الزقاق بعد. لقد سجّل الحُشري صوتي على جهاز صغير ينام في جيب سترته، وسلّمه إلى الأمن، فغدوتُ مطارداً بسبب نكتة تافهة. طلبت من أمي أن تعود إلى البيت دون أن تشعرهم بذلك، وهربتُ على الفور إلى بيت خالي إبراهيم. أخبرت جلال حالما وصلتُ بما جرى، وأوصيته أن يبقي الأمر سرّاً بيننا خوفاً من أن يسمع به بابا عفلق، ويسلّمني إلى الأمن مكتوفاً.

انتصف ليل الغد، وعدتُ إلى الدار متسلّلاً. وجدت أمي خلف الباب تبكي، خائفة، غير مطمئنة لما تخفيه الأيام لي. قالت بما يشبه الهمس بأنّهم سيعودون مرة أخرى، ولن يتركوني بحالي. كان لديها يقين الأمهات بأنّ الخناق سيضيق، وأنّي لا محالة واقعٌ بين أيديهم مثل فأر في مصيدة. لم أكترث وقتَها لما حدث أو ما سيحدث قدر ما شغلني حالُ أمي. أيّ محنة تلك التي وضعت السماءُ فيها أمي؟! وأيّ قدر سيّئ جعلها أماً عراقيّة؟! أن تكون المرأة أمّاً في العراق فذلك يعني بأنّها كائن سيّئ الحظ.. هذه البلاد لا تشبع من قهر الأمهات!

أعطتني، بعدما أدخلتني وأغلقت الباب بالمزلاج، لفافة دنانير كانت مربوطة بخيط صوفيّ، وقالت:

«لا عيشَ لك هنا بعد الآن.. خذ هذا المبلغ وهاجرْ قبل أن تفجعني بك.»

«من أين جئتِ بالمال؟»

«لقد بعتُ ماكنة الخياطة صباح اليوم، لا حاجة لي بها.. ارحلْ من هنا أرجوك.»

«إلى أين أذهب يا أمي؟»

«أرض الله واسعة يا ولدي.»

ـ 12 ـ

ضعيفةً تغدو البلدان حين تضاجعها الحروب، فينتعش فيها سوق المضروب، ويبرز في سمائها نجم المزوّرين. يقول منير الواوي، أشهر نجوم التزوير في بغداد وضواحيها، بأنّ جوازات السفر التي يضربها أفضل بكثير من تلك التي تُصدرها الدولة، وأنّ لا وثيقة مضروبة في بغداد إلا ومرّت من تحت يديه الحريريّتين. كان شابّاً عشرينيّاً مربوعاً بسحنة سمراء، لا يتجاوز طوله المائة والستين سنتيمتراً، وكان بديناً بشعرٍ فاحم كثيف، وأنفٍ كبير ملتصق في وجهه كأنه مؤخرة ضفدع. تمنيّت أن أسأله عن الأسباب الموجبة لمنحه لقب الواوي، لكنّي آثرت الصمت خشيةَ أن يثور بوجهي ذلك الانتهازيّ الجشع ويضاعف عليّ الأجور. دفعت له قسطاً من المبلغ المطلوب مع صورة شخصيّة، وأخبرَني بأنّ جواز السفر سيكون جاهزاً في ظرف يومين. سألتُ جلال حين خرجنا من عنده:

«من أين تعرف كيس الوحل هذا؟»

فقال:

«سيأتي اليوم الذي تشكر الله فيه لأنه رماه في طريقك.»

تسلّلتُ إلى البيت بعدما انفتح باب الليل وهبط الظلام فوق المدينة. كانت أمي عند الباب تنتظر بقلقٍ كالعادة. قاتل الله القلق كيف يأكل قلوب الأمهات خلف أبواب الانتظار! بادرتني بالسؤال عما فعلتُ، فأخبرتُها بأنّ الأمور تسير على ما يُرام، وأنّ السفر بات قريباً. أطلقتْ لدمعها العنان ولم تعقّب بحرف واحد. عانقتها وهمست في أذنها مازحاً: «لا بأس يا أمي، ستتزوجين وتنسيني.» فابتسمت وهي تنشّف بمنديل الصبر دموعها، ثم ضمّت رأسي إلى صدرها، وراحت تهمس بدعاء طويل.

وبعد يومين حملتُ حقيبتي وغادرت الدار. لم تودّعني أمي عند الباب ولم ترشّ الماء خلفي، كما تفعل الأمهات في هكذا موقف، بل ركبت عنوةً في التاكسي، رافضةً بإصرار دعواتي لها بالبقاء. لقد جلستْ قربي في الخانة الخلفيّة للسيّارة، بينما جلس جلال، ابن خالي، في الأمام. كانت يدها ترتجف وهي تمسك بزندي، وصدرها يلهث. علّقتْ في رقبتي قلادة تحمل تميمة ثم أغمضت عينيها وراحت تردّد بهمس سريع، قرب أذني، آيات وتمائم. وصلنا عند ساحة حافظ القاضي، حيث تجتمع آنذاك الحافلات المنطلقة نحو عمّان. رأيت الحزن يخيّم على قلب أمي وهي تحاول كتم نشيجها

كي لا تثير انتباه السائق. عصرتُ يدَيها وطبعتُ على رأسها قبلة، فألصقتْ فمها في عنقي وشمّتني شمّةً طويلةً، ثم انفجرت بالبكاء مثل سحابة ماطرة. لقد شعرتُ بأنّ قلبها يوشك على التوقف من سرعة الخفقان. احتضنتها، مسحت على كتفيها، رجوتها أن تهدأ، لكن دون جدوى، فقلبها كان يدقّ وكأنّه طبلٌ في يد قبيلة من الهنود. في النهاية وعند باب الحافلة قال لها جلال محاولاً مواساتها: «لا تخافي على سعيد يا عمّة، ولا تحزني لفراقه، سيعود ذات يوم.. اطمئني» لكنّ نظرتها، وهي تلوّح لي من خلف الزجاج، كانت تقول بأنّي لن أعود.

- 13 -

كاد زعيق البرامج الحواريّة أن يفلق رأسي. أغلقت التلفاز وأعدت جهاز التحكم إلى المنضدة، فعقلي ما زال يقلّب رسالة عبير الأخيرة «عليك أن تعود إلى بغداد فوراً.» أحضرت اللابتوب من غرفة النوم. وضعته على طاولة الطعام في الصالة بانتظار رسالة ثانية تشرح فيها ما يجري. كنتُ بحاجة إلى حصد القلق بمنجل الطمأنينة. «لماذا عليّ أن أعود الآن؟ ما الذي يجري في بغداد يا إلهي؟!» تمتمتُ وأنا ألج المطبخ كي أدلّل نفسي بفنجان قهوة. رنّ الهاتف. كاري سولبيرغ تتصل. أهملتُ المكالمة.

عادت لتتصل من جديد، فأهملتها ثانيةً. في المرة الثالثة فتحتُ الخط:

«نعم، سيّدة سولبيرغ، تفضّلي، ماذا عندكِ؟»

«هنالك حالة طارئة، لا بد أن تأتي، سعيد.»

«لكنني في إجازة، ماذا حصل؟»

«لقد تعرض دانيال إلى حادث.»

«ماذا؟! هل قلتِ بأنّ دانيال تعرّض إلى حادث؟!»

«نعم، قبل قليل حدث الأمر، وعليك أن تأتي لتوزّع البريد بدلاً عنه. تاكسي على حساب الشركة وتعال بسرعة، أرجوك.»

دانيال آلغن بوفارسون، أوّل من عرفته في مكتب البريد، عشرينيّ بدينٌ برأس كرويّ يشبه البطيخة، وبطن كبير مثل كيس بطاطا. كان طيّباً ومتعاوناً، رآني في ذلك اليوم تائهاً بفرز الرسائل في الورديّة المسائية، فتبرّع لنجدتي. علّمني كيف أصنّف الطرود و الرسائل بحسب الرقم البريدي، ودلّني على أقصر الطرق لإنجاز المهمة. لازمته بعدما تدرّجت في العمل وصرت ساعي بريد تحت التدريب. كنّا نخرج سويّةً لتوزيع الرسائل قبل أن أحفظ الطرقات و العناوين وأستلم سيّارة بمفردي. وكان دانيال مرِحاً إلى حدّ يختلط عليك فيه الجد من الهزل. لكنّه، رغم ظرافته ومرحه، كان يتعاطى مع كاري سولبيرغ مثل شيخٍ حكيم. لم يعترض يوماً على

ترّهاتها اللامتناهية، ولم يشتكِ. يقول بأنه تعلّم من أبيه الآيسلندي الأصل كيف يكون اسفنجياً، يمتصّ غضب الآخرين، كي تمرّ الحياة بلا منغصّات. في ما عدا ذلك كان ساخراً، يصنع من الهواء نكتة يضحك لها كثيراً رغم تفاهتها. وكنتُ أضحكُ لضحكِه وشكل عينيه اللتين تغوران في محجريهما بمجرد أن يبتسم. سألني في إحدى المرّات إن كنت قد سمعت بساحرٍ آيسلنديّ يضرط ويطير، أم لا، فقلت: «لا، لم أسمع به.»، فردّ: «ولا أنا.» ثم أطلق ضحكةً عالية وظلّ يقهقه حتى دمعت عيناه.

ذات نهارٍ كانونيّ شبه منجمد، انغرستْ إطارات السيّارة في الثلج. حاولنا إخراجها، ولم نستطع. فاضطررنا حينها إلى الاتصال بشركة التأمين وطلب المساعدة. أخبرَنا موظف التأمين بأنّه سيرسل شاحنة لإخراجنا، لكنّها تحتاج إلى ساعة تقريباً لكي تصل إلى الموقع، بسبب الثلوج التي تراكمت وقطّعت أوصال المدينة. كان بياض النهار ما يزال في أوله، والكثير من الرسائل لم يوزَّع بعد، فقلت لدانيال: «لماذا الانتظار بلا عمل؟! ما رأيك أن نحصي ما بقي لدينا من بريد ريثما تأتي المساعدة؟!» فاستحسن الفكرة وتناول الكيس القماشي الأسمر من المقعد الخلفي وشرعنا بالعدّ. كان فيه ثلاثمائة وثمانون رسالة، وستّون طرداً سميناً. بدأنا بفرزها حسب رقم القطّاع، فسقطت يدي على طرد غريب. كان مظروفاً أسمر اللون، مرسلاً من متجرٍ تعمّد إخفاء اسمه وعنوانه، إلى جارتي العزباء كاثرين هاندرسن. دقّقت

فيه جيداً، قلّبته يميناً وشمالاً متحسّساً ما فيه، فازدادت ريبتي، ووسوس الشيطان في أذني: «افتحه يا سعيد.. افتحه.» ولأنني سريع الاستجابة لوساوس الشيطان في مثل هذه المواقف، فضضت المظروف، فكانت المفاجأة؛ قضيب اصطناعيّ مزوّد ببطارية داعمة للاهتزاز.

«يا الله! ماهذا يا كاثرين؟! ما شأنك به، وما الذي دعاكِ لاستعماله؟! ألهذا الحد شحّ الرجال حولكِ كي تلجأي إلى هذه الدمية القبيحة؟!» هتفتُ مصدوماً بما رأيت، فحسناء فارعة مثل كاثرين هاندرسن، كان لها أن تجد أفضل من هذا بكثير، دون الحاجة حتى إلى أجور الشحن والتفريغ. لقد عزّ عليّ الأمر حينها وقرّرت، وبدافع الحرص، ألّا أضعه في صندوق بريد كاثرين، فحرامٌ أن تنشغل عزباء جميلة باسطوانة لدائن رخيصة كهذه. ولو أنّ الأمر كان بيدي لمنعت استعمال هذه الدمى حتى في أحلك الظروف، إذ أنّ منتوجاً كهذا لو انتشر استعماله، لا قدر الله، فإنّه سيودي بنا، نحن معشر الرجال، إلى الانقراض لا محالة. دسسته في جيب سترتي. وبعدما انتهينا من توزيع البريد، ذهبنا إلى بيت كاري سولبيرغ، وأنزلته في صندوق بريدها لعلّها تنشغل به عن توبيخنا، «خذيه أيتها العاهرة، فهذا ما يليق بكِ.»

في اليوم التالي تغيّبت عن العمل، ليقف دانيال وحيداً يمتص

غضب كاري كإسفنجة أصيلة. لكنّي عوّضته فيما بعد بزجاجة بيرة وقطعة بيتزا. كان يأكل البيتزا بشراهة، ويشرب البيرة في الصباح والمساء وما بينهما لينام مخموراً ويصحو مخموراً ويقود سيّارة البريد مخموراً. سألته ذات مرة رغبةً في الثرثرة أثناء العمل:

«هل أنت سعيدٌ في حياتك؟»

«لا أدري.»

«دانيال، ماذا تعني بأنّك لا تدري؟!»

«حقاً لا أدري، يا سعيد، لكنّها في النهاية فيلم قصير.»

«فيلم قصير؟!»

«نعم، الحياة فيلم قصير لكلّ منّا فيه دوره الذي يؤدّيه ويرحل، وعلى المرء، حين تقع فوق رأسه مصيبةٌ ما، أن يردّد في سرّه: فيلم قصير.. فيلم قصير.. فيلم قصير..»

«ولماذا عليه أن يفعل ذلك أيها الفيلسوف البدين؟»

«كي تهون المصيبة وتذوب مثل الثلج تحت الشمس.»

«حسناً، أخبرني هل تحبّ هذا الفيلم القصير؟»

«أحبه كثيراً.»

«ما الذي تحبّه فيه بالضبط؟»

«مممم، أحبّ فيه ثلاثة أبطال.»

«بربّك؟ من هم؟»

«أبي والبيتزا وتلك العاهرة.»

«العاهرة؟! من تكون؟»

«البيرة، البيرة يا سعيد، أحبها مثل أبي وأكثر.»

يطلق دانيال على البيرة لقب العاهرة لأنها، وبحسب قوله، تهبه المتعة مقابل المال. فقد كان يشتري بثلثَي راتبه بيرة، بينما يصرف الثلث المتبقي على الطعام والثياب والحاجات الأخرى. غاب عن الوعي في أحد الأيام بسبب سكره الشديد، ولولا أحد سكّان العمارة لفقد المسكين حياته. لقد شرب في ذلك اليوم عدداً لا متناهياً من زجاجات البيرة، وسكب الكثير منها على رأسه وجسده حتى أغمي عليه. فاضت الشقة بالبيرة حينها وتسربل السائل من تحت الباب نحو الدهليز، ثم انحدر على السُلّم حتى وصل الطابق السفلي من العمارة. وفي الأثناء خرج أحد السكّان ليرمي كيس القمامة في الحاوية، فشاهد سائلاً ذهبياً منحدراً من السُلّم، يتجمّع عند باب العمارة. تتبّع الرجل السائل واهتدى إلى المصدر؛ شقة دانيال آلغن بوفارسون، في الطابق الخامس. طرق الباب ولم يُفتح له بينما خيط البيرة مستمر بالتسلل من تحت الباب. اتصل حينئذ بالطوارئ، فحضروا وتم انقاذ دانيال.

في الحقيقة، لست قادراً على تأكيد الرواية، ولا أدري إن كانت الحادثة قد وقعت فعلاً أم أنها من بنات خياله، ولكنّ هذا ما أخبرني به دانيال وهو يقود سيّارة البريد ثملاً.

«قتلتك العاهرة يا صاحبي.» قلت في سرّي وقد تراءى لي دانيال، مضرّجاً بالدماء خلف المقود مثل خنزير صغير في مسلخ.

«حسناً، حسناً، سأكون هناك بعد نصف ساعة.» أجبتُ مديرتي، وأغلقت الهاتف. غيّرت ثيابي وارتديت سترة العمل، ثم اتصلت بشركة التاكسي. وبعد نصف ساعة بالتمام كنت في مكتب البريد، أستمع مرغماً لحديث العجوز الشمطاء، كاري سولبيرغ. لقد بدت متوسّلة هذه المرة، إذ من حقي أن أرفض العمل كوني أتمتع بإجازتي الصيفية، لكنّي قبلتُ المهمة لأجل دانيال، صديقي الطيّب. غادرت مكتب سولبيرغ، وشرعت بنقل البريد من سيّارته المحطمة التي أعادتها شركة صيانة الطرق من مكان الحادث. وضعت الأكياس في المقعد الخلفي ومضيت أدور بين الأزقة والشوارع. كنت أضع الرسائل في صناديق البريد وأحدّث نفسي: «لماذا عليّ أن أعود إلى بغداد يا ترى؟!».

ـ 14 ـ

انتصف النهار وما زال البريد مكدّساً في الخلف. كان الصداع شديداً هذه المرّة، هائماً مثل كلب سائب ينبح في كل اتجاه. منذ وقت طويل وهو يداهمني بشراسة حتى شككتُ بأنّ ورماً خبيثاً ينام في مؤخرة رأسي. لقد زرتُ لأجله كثيراً عيادة الدكتور

ـان هولمبيرغ، وكنت في كل مرة أشكو إليه، بلا جدوى، ـطارق الخشب التي تدقّ في رأسي وتحوّله إلى مصنع للسُفن الـراعية. كان يُسكتني بشريط بنادول تافه، فأعود لأشتكي: «عزيزي ستيفان، إنّ الصداع سيقضي عليّ.. أرجوك أسكته، الست طبيباً؟» فيبتسم ويكرر الجواب ذاته، وبالهدوء القاتل ذاته: «لا تقلق يا سعيد، إنه صداع عصبي، ينطّ كلما ازداد الضغط النفسيّ لديك.. عليك فقط أن تسترخيَ كي تتخلّص منه.»

في إحدى الزيارات أخبرته بأنّي لن أغادر العيادة حتى يضع له حداً، ويعطّل ماكنته في رأسي. ابتسم ستيفان وأطرق، ثم ألصق عينيه في شاشة الحاسوب وراح يفتش عن دواء مناسب. كان يحرّك بالفأرة، ويعزف بفمه لحن أغنية باردة: «الجنّة على الأرض.. فرحة عظيمة.. أنا وحيد.. أنا حيّ.. الجنّة على الأرض.. نعمة رائعة.. أنا وحيد.. أنا حي..» وعندما انتهى، أدار كرسيّه نحوي ليقول:

«حسناً، سأصف لك دواءً ترويحيّاً هذه المرة.»

«أيّ نوعٍ من الدواء هذا بحق السماء يا ستيفان؟»

«الكيتامين، دواء ترويحيّ رائع، ولحسن الحظ فإنه قد توفر أخيراً على هيئة أقراص.»

لم أفهم ما كان يقصده ستيفان بالدواء الترويحي، ويبدو أنّ عدم الفهم كان بادياً في عينَيّ كمن يدخل مختبراً للفيزياء وهو لا يحفظ جدول الضرب بعد، فتبرّع الرجل بالشرح. قال بأنه عقار

لمعالجة الضغط النفسي والاكتئاب، وأنّ تناوله في مثل حالتي كفيلٌ بإيقاف الصداع عند حده، مواصلاً بأنّه يستخدم في الطب البيطري كذلك، لقدرته على تهدئة الخيول الفائقة من التخدير في صالات العمليّات!

«وهل تراني حصاناً كي تصف لي هكذا عقار يا ستيفان؟»

«لا، طبعاً، لكنّ تصوّر معي؛ عقار قادرٌ على تهدئة الأحصنة، كيف ستكون فعاليته مع الإنسان؟!»

«آه، هكذا إذن؟»

«نعم، هكذا، اهدأ واطمئنْ.»

ثم تناول من الرفّ كتاباً سميكاً. فتحه على الفهرس وبدأ يتتبّع أسماء العقاقير حتى توقف عند الكيتامين. ذهب إلى الصفحة، وراح يتلو عليّ التعليمات محذّراً من فرط الاستعمال. قال بأنّ من آثاره الجانبية الهلوسة البصريّة والسمعيّة، والانفصال بين العقل والحواس! شعرتُ وأنا أصغي إليه، بأنّي على أبواب مغامرةٍ من شأنها أن تجعلني شخصاً كثير الأوهام. لكنّي قبلتُ بالأمر، لوجعي، وبدأتُ مُذ ذاك بتناول الكيتامين. ومع مرور الأيام عرفت بأنّ الأوهام تجعل الحياة قابلة للعيش.

لم يدخل في معدتي منذ الصباح سوى الدخان والماء والحبوب المسكّنة. توقفت كثيراً أثناء توزيع البريد وأخطأت كثيراً. هي العناوين

،اما لم تتغير، أحفظها عن ظهر قلب. كمية البريد لا تختلف كذلك ،.. تعوّدت عليه. لكنّ شريط الذكريات حين يدور، يجعل الذهن ا، دا لا يقوى على التركيز. لقد أعادت عبير، بلا قصد، تشغيل الم، مس المضغوط في رأسي، فتذكّرت، وأنا أدسّ رسالةً في صندوق ال ، ب، لدى باب مركز الشرطة الرئيسي، وقوفي أمام هذا الباب خائفاً ،ال ، يوم.

ـ 15 ـ

كنت جائعاً حد الإعياء، وقد نسيت إخراج كيس الكليَجة من الحقيبة قبل وضعها في صندوق الأمتعة. كان فيها ثياب وعلبتا ..جائر وكليجة من صناعة أمي، كانت قد دسّتها في الحقيبة وقالت: «تنفعك في الطريق.» لا يطمئنّ قلب العراقيّات ما لم يدسسن في أمتعة أبنائهن أكياس الكليجة. سألت السائق حين اجتازت الحافلة الحدودَ، واقتربت من مدينة عمّان، عن مكان تجمّع العراقيين في المدينة، فقال: «في وسط البلد، قرب الساحة الهاشمية.»

العراقيون يشبهون السمك إلى حد بعيد؛ حالما يخرجون من النهر يشعرون بالاختناق! لذا تراهم، أينما رحلوا، شقّوا نهراً ومارسوا فيه حياتهم السمكيّة. ليس هذا فحسب، بل هم يشبهون السمك في قصر الذاكرة أيضاً، فكلاهما ينسى الفخ سريعاً ليقع فيه من جديد. تحلّق

حول الحافلة سمكٌ مهاجر، يسأل عن أخبار الوطن، وعن السجائر والأطعمة الجافة. اشتروا الرز والعدس والسكر الذي كانت تمتلئ به حقائب المهاجرين الجدد، وغادروا. أما أنا، فليس في حوزتي سوى علبتَي سجائر مستوردة أعطانيهما جلال في بغداد وقال بعهن حين تصل، علّك تجني بهن بعض النقود. بعتهما ومضيت إلى أقرب مطعم في وسط البلد. كان مطعم سلام العراقي. طلبت سندويتش فلافل بالعنبة. كانت ساخنة ولذيذة.

«مممم.. لذيذة.» قلت وأنا أطلب سندويتشاً آخر.

«عافيات.. تفضّل أخي.» أجاب سلام، وهو يناولني السندويتش الثاني، بعدما زاده حبّة فلافل كرماً منه.

كنت متوجّساً يومذاك، فعمّان بالنسبة لي كانت مدينةً جديدة، وحياةً لم آلفها من قبل. للمدن الجديدة رهبتها، سيما المكتظة بالسكان منها. لم أجلس حول مناضد المطعم البلاستيكيّة، بقيت واقفاً أقضم السندويتش بشراهة وأدردش مع سلام وكان الشاب يستمع لي وهو يقلّب حبّات الفلافل في الزيت المغلي. سألني عن موعد وصولي، وسبب مجيئي إلى عمّان، فاختصرتُ الحكاية قائلاً: «شاردين وبه نستعين.» ضحك سلام معلّقاً: «كلنا شاردين وبه نستعين.» ثم وبلفتة من لفتات الحظ النادرة قال: «ما رأيك أن تعمل عندي؟» فوافقت على الفور ممتنّاً، لكنّي تذكّرتُ بأنّي لا أملك مأوىً بعد، فاستدركتُ:

«أحتاج يومين أرتّب فيهن السكن وأرجع لك.»

«لا عليك، السكن موجود.»

«ماذا يعني؟»

«قال اسكن معي في الفندق، ونتقاسم ايجار الغرفة.. ماذا قلت؟»

«موافق طبعاً.»

«على بركة الله.»

في اليوم التالي كنت واقفاً خلف المقلاة، أدندن مع فيروز: «نسّم علينا الهوا من مفرق الوادي.. يا هوا دخل الهوا خذني على بلادي..»

ـ 16 ـ

كان الخوف قريني في تلك الأيام، فعملي يستمر لساعات متأخرة من الليل، وعليّ أن أعود إلى الفندق وحيداً بعد الإغلاق. ذات ليلة اعترض طريقي شخصان، بدت في عينَيهما علامات الحزم. كانا شرطيَّين من الأمن الوقائي. طلبا هويّتي. ناولتهما جواز السفر، فقالا: «تعال معنا.» أركباني في المقعد الخلفي لسيارة بيضاء، ثم أوثقا عينَيّ وانطلقا بي نحو المجهول. دارت عجلات سيّارة الأمن لربع ساعة تقريباً وتوقّفت عند بوّابة حديديّة، سمعت صوت مزلاجها وهو يُفتح. اقتادني السجّان إلى دهليز يفضي إلى زنزانة كبيرة، كانت ملأى بالعراقيين. هتف أحدهم مُفسحاً المكان

لي: «هلا بيك هلا.. عاش العراق العظيم.» كان شاباً عشرينيّاً أنيساً، قال بعدما جلستُ إلى جواره بأنّه يملك شهادة البكلوريوس في علم الاجتماع من جامعة بغداد. جاء إلى الأردن من أجل العمل، فكانت النتيجة أن اشتغل عتّالاً في مخزن للحبوب، وتم القبض عليه لمخالفته شروط الإقامة.

لم يكن مسموحاً للعراقيين بممارسة العمل هناك، فنوع إقامتهم سياحيّة لثلاثة أشهر لا غير، يغدون بعد ذاك صيداً سهلاً لمفارز الأمن وشرطة متابعة المقيمين. لقد رأيت ذلّ العراقيين في عمّان. كانوا يعملون في العتالة والبناء وبيع السجائر وقطف الزيتون بأجر زهيد، وكان من الطبيعيّ جداً ألا يحصلوا على أجورهم في بعض الأحيان، حيث يستبدلها صاحب العمل بمقولة: «الله يعطيك العافية.» مما جعلهم غارقين في الديون إلا ما ندر.

في صباح الغد وجّهوا لي تهمة تجاوز الإقامة والعمل دون رخصة، وخُيّرتُ بين دفع غرامة مقدارها تسعون ديناراً أردنيّاً، أو السجن ستة أشهر، أو التسفير إلى العراق. ولأنني لم أكن قادراً على دفع الغرامة، اخترت النوم خلف القضبان. وبعد عشرين ليلة خرجت بكفالة مالية دفعها سلام. لكنّه، وفي طريق العودة إلى الفندق، همس في أذني بأنّه سيقتطع مبلغ الكفالة من راتبي، فأومأت بالموافقة شاكراً.

كان سلام، رغم شهامته، براغماتيّاً لا يعير العواطفَ الكثير

من اهتمامه. اعتاد أن يحسب كل شيء بالورقة والقلم، ويتعامل مع الحياة بلغة الجمع والطرح. هاجر إلى عمّان بعدما دهسته الحياة وركله الوطن كالعادة خارج أسواره. ففي يوم من أيام العراق الساخنة، وقفت أمام باب الدار سيّارة أجرة، تحمل تابوتاً محشيّاً بجثّة متفحّمة، لتجعل منه رقماً تافهاً في قائمة الأيتام الطويلة. لقد أخبرهم المأمور ذو النجمة الواحدة على الياقة، بأنّها جثّة الأب الشهيد، الذي مات فداءً لتراب الوطن، وأنه ينقل إليهم تعازي السيّد آمر اللواء وكافة الضبّاط والمراتب هناك. وقفت الأم أمام تابوت زوجها تصرخ وتضرب رأسها بالجدار، حتى أُغشي عليها ونُقلت إلى المشفى. وبعد مضي عام واحد على وفاته تزوّجت من أخيه. كانت تريد بتلك الزيجة أن تحمي عيالها من برد اليُتم، لكنّها كانت سيئة الحظ كمن يجد العظام في التفاح، فقد عاد الأب المفقود مع الأسرى بعد إيقاف ماكنة الحرب اللعينة عن الدوران، ليكتشفوا بأنّه لم يكن ميّتاً. أما الجثّة المتفحمة التي دُفنت قبل سنوات على أنّها جثته فقد كانت لشخص آخر لا أحد يعرفه! لقد عاد الرجل إلى أرض الوطن، ليجد زوجته في حضن أخيه على سنّة الله ورسوله فخرّ ميّتاً بالسكتة القلبيّة ودُفن في المقبرة ذاتها. وبعد مضيّ بضعة أيام أضرمتْ الأم المنحوسة النارَ في جسدها ولحقت به، بينما رحل العمّ إلى مدينة بعيدة هرباً من العار الذي لحق به دون ذنب. هذا لم يكن فيلماً هنديّاً بأيّة حال، بل هي حكاية عراقية واقعية

بامتياز، لكنْ؛ في بلاد الفنطازيا تختلط الحقيقة بالخيال فتمسي القصص عصيّةً على التصديق.

منذ أن عرفته، يحرص سلام العراقي، صاحب مطعم الفلافل في عمّان، على ألا ينزلق من يده فلس واحد. كان كل يوم، بعد عودته من المطعم، يجلس ليسجّل أدق التفاصيل في دفتر كبير، يحتفظ به تحت وسادته. كان يدوّن في خانة المصروفات فنجان القهوة الذي صنعه بنفسه في الصباح وشربه على ريقه، السيجارة التي أشعلها وهو في الطريق إلى المطعم، العُملة المعدنيّة الصغيرة التي تصدّق بها على مشرّد اعترض طريقه، كسرة الخبز التي طلاها بلعقة عسل وأفطر بها، وفي نهاية الشهر يجمع ويطرح، فتكون النتيجة «رابح».

سألته في أحد المساءات الطويلة:

«سلام، هل تغريك عمّان بالبقاء فيها؟»

«لا، ولكن الحمد لله على كل حال.»

«على كل حال؟! هذا يعني بأنك لا تشعر بالراحة.»

«تبقى الراحة غير مكتملة الدسم، ما دمتَ لا تحمل جنسية البلد الذي تعيش بين أكتاره.»

« هل تعني بأنّك تفكّر في العودة إلى العراق ذات يوم؟»

«ماذا؟! العراق؟! هذا من رابع المستحيلات.. لن أنسى ما جرى لي هناك.»

ان سلام خائفاً من تدوير المأساة، مما حدا به أن يجعل من
العودة إلى العراق مستحيلاً، موطّناً نفسه على إكمال حياته في
[illegible]

دت في إحدى الليالي إلى الفندق، فوجدت سريراً ثالثاً حُشر
ل الغرفة. كان ينام فيه شاب عراقي يعمل في تجارة الملابس
ستعملة، وكانت أكياس البالة محشورةً تحت الأسرّة، والرائحة
بعثة منها تكفي لتخدير فوج من التماسيح الغينيّة. سألت سلام في
م التالي عن الأمر، فردّ بأنَّ صاحب الفندق قد اقترحه عليه لعدم
فر غرف فارغة فوافق. قال ذلك غامزاً بعينه في إشارة إلى تقاسم
ن إيجار الغرفة على ثلاثة، بدلاً من اثنين.

ثلاثة شبّان يكدّون طوال النهار، متخفّين عن مفارز الأمن، اينحشروا ليلاً في جُحرٍ متعفّن لا يُرضي طموح أقذر جُرذٍ في دهاليز بانكوك الشعبية.. إنها التغريبة العراقية البائسة!

لكنّ الأمر لم يدم طويلاً، فقد خرج مطيع بأكياسه، في أحد الصباحات الباكرة، إلى سوق البالة ولم يعد. ذهبنا للسؤال عنه هناك، فأخبرنا أحد الباعة بأنّ الأمن كان قد داهم السوق وقبض على العراقيين مع بضاعاتهم، وبأنّ مطيع كان من بينهم. شعرتُ يومها بأنّ وضعي أصبح قلقاً مثل ضرسٍ لبنيّ يشارف على السقوط. ففي عمّان للجدران آذانٌ كذلك، ومن شأنها أن توشي بي لدى الأمن الأردني. سيُقبض عليّ لا محالة إذن، وسأُودع خلف القضبان من جديد، أو

يُرمى بي وراء الحدود.. ماذا أفعل يا إلهي؟! هل كُتب عليّ الع..
مطارداً أينما حللت؟!

«سندويتش فلافل لو سمحت.» نادى أحدهم قاطعاً هجمة الذا..
التي بدأت تعصف في رأسي.

«حاضر.» أجبته.

كانت تبدو على خدّيه آثار النعمة. ما الذي رماه يا ترى نحو مطعم صغير يبيع الفلافل على هامش الحياة؟! أوشكت أن أدلو.. عليه ما يجول في خاطري، لكنّه تبرّع بالشرح متفضّلاً. قال وهو يقضم السندويتش بشهيّة مبالغ فيها، بأنه يقيم في مملكة النرويج، شمال غرب أوربا، وأنه جاء من المطار إلى وسط البلد بحثاً عن مطعم لبيع الفلافل. كان شاباً في نهاية العشرينيّات من العمر، بخدّين متورّدَين وعينَين تنطقان بالكثير من السعادة، وكان يطيل شعره ويرتدي سلسلة ذهبيّة وساعة ثمينة مثل تلك التي يرتديها أبناء الأغنياء. يقول بأنّه يعيش مع صديقته النرويجيّة، ويعملان سويّةً في شركة للسياحة والسفر، وأنّ مجيئه إلى عمّان إنما لأجل رؤية أمه وأخيه، اللذين سيصلان غداً من بغداد. سألته عن الحياة في النرويج، فقال بأنّها جنّة تنقصها الفلافل، وأنّ هذه المقلاة لو قُدّر لها أن تصل هناك لأمسيتُ، أنا الذي أرتدي بنطال جينز من سوق البالة، تاجراً غنيّاً.

ناولته سندويتشاً آخر، وزجاجة ميرندا على حسابي، ورحنا

...ني عن النرويج وبناطيلها. أسهب الشاب في الحديث عن الطعام هناك، وعن الحريّة التي يتمتع بها الشعب النرويجي، وعن المساواة والعدالة والأمان المطلق. شعرت، مصغياً إليه، أنها الأرض التي أبحث عنها وأحلم أن أُديف بترابها سنوات عمري.

«هل يحصل العراقي على لجوء هناك؟» قلتُ متحمّساً.

«بلا شك، فالنرويج تحب العراقيين وتدلّلهم.» أجاب بثقة.

لا أعرف، ومن أين لي أن أعرف، مقدار الحقيقة في كلام الشاب، وما إذا كان صادقاً في ما يخصّ الدلال الذي تحظى به الجالية العراقيّة هناك أم كاذباً! لكنّه، وبعدما انتهى من مضغ آخر لقمة في فمه، أخبرني بما يدعم كلامه كاشفاً السرّ وراء ذلك. قال بأنّ النرويج تديرها النساء، وأنّ نسبتهنّ مرتفعة، تصل إلى خمسة نساء مقابل رجل واحد. وأنّهن يعشقن الرجل العراقي ويُعدّنه عصارة الذكورة الشرقيّة، لذا تجده مدلّلاً في بلادهنّ. ثم أردف، وهو يخرج من جيبه ورقاً معطّراً ليمسح به فمه ويدَيه، بأنّ المرأة النرويجية تذوب كالزبدة في المقلاة عندما تمسك بيد الرجل العراقي! شعرتُ حينها بأنّ حديث الشاب صار يُرخي مفاصلي، ويُزيد من إفراز اللعاب في فمي، فأغلقته متحجّجاً بإبدال زيت المقلاة.

ـ 17 ـ

«سلام.. أريد أن أهاجر.» قلت له ذات ليلة.

«ماذا؟! تهاجر؟! إلى أين؟» سأل مندهشاً.

«إلى النرويج.»

«ولماذا النرويج تحديداً؟»

«لأنها تموت على العراقيين.»

«هاهاهاها..» ضحك بهستيريا.

«لماذا تضحك؟!»

«أضحك لهذه النكتة.»

«أيّ نكتة؟»

«نكتة النرويج التي تموت على العراقيين! بالله عليك من قال لك ذلك؟!»

«لا عليك.. المهم، أنا نويت السفر وخلاص.»

لم يكن سلام مقتنعاً بقرار الهجرة المفاجئ الذي دحرجته أمامه

ال ذرة صوف، بلا مقدّمات، فراح يضحك ساخراً منّي. ولعلّه كان محقاً في سخريته، فالقرارات العاجلة والمفتقرة للتخطيط لا ينبغي الأخذ بها على محمل الجد، لأن النتائج كارثية في العادة. لكنّه حين شعر بأنّ نبرة صوتي قد تغيّرت، تدارك قبل أن يضع الغطاء على وجهه وينام:

«تهاجر وتتركني لوحدي يا نذل؟»

«ليس لديّ خيارٌ آخر يا سلام.. لقد تعبت.»

«من ماذا تعبت يا سعيد؟»

«تعبت من الخوف، من القلق، من الترقّب..»

«أوف.. كل هذا؟!»

« نعم، كل هذا وأكثر، فأنا يا صاحبي هربت من بغداد لأني فقدت الأمان فيها، وها أنا ذا أتعرض لمداهمات الأمن ههنا كل يوم! أريد أن أهاجر إلى بلاد أشعر بالأمان تحت سمائها.. هل تفهمني؟»

«حسناً، حسناً، دعنا ننام الآن، والصباح رباح.»

- 18 -

غطست في البحيرة وكنت عارياً تماماً. ما الداعي للستر ما دام في الدنيا أمان؟! لكنّ قلبي كاد أن يتوقف عن العمل لشدة برودة الماء.

صرخت شاكياً، فقفزتْ نحوي شقراء، لا أدري من أين جاءت! التهمت فمي بقبلةٍ أشعلت النار في أحشائي، وشعرتُ بالدفء. خرجنا، بعد شوط سباحة، من الماء. أشعلنا حطباً وتضاجعنا قربه مثل إنسان بدائي. ارتدينا ثيابنا بعدما ارتوينا من بعضنا البعض، وشرعنا في تسلّق جبل أبيض. اتفقنا على أنّ مَن يصل متأخراً، تقع عليه مهمة جرّ عربة التزلّج. سبقتها، وكسبت الرهان، لكنّي عفيتها من جرّ العربة، إذ ما زالت شهامة العربي تسري في عروقي رغم الصقيع. أجلستها قربي، ثم شددتُ العربة على أربعةٍ من كلاب الوولف السريعة. أرخيتُ الشكيمة بعد ذلك وشددتها، فانطلقت بنا الكلاب مسرعةً نحو المنحدر. كانت الدنيا تلبس ثوب عرس أبيض، والبهجة بلا جدران. لكنّ أحد الكلاب السعيدة، تعثّر بحجرٍ وسقطت العربة في الوادي، فاستيقظت لأرى فأراً صغيراً مقطوع الذنب يتراقص فوق صدري.

- 19 -

«لا تنسَ أن تسلّم لي على مستر هاري.» قال حمزة الأملط وهو يوصلني عند باب المطار.

ثلاثينيٌّ حليق الوجه، بعينَين خضراوَين واسعتَين وبشرةٍ عليها آثار بثور قديمة، عرّفني إليه سلامُ قائلاً بأنّه الشخص الذي

يوصلني إلى الضفّة الأخرى من العالم. التقينا به في مقهى صغير على ناصية الطريق. كان قليل الكلام، جاحظ العينَين كمن يشاهد فلم رعب في قبوٍ مظلم. تفاوضنا معه على المبلغ، وناولناه جواز السفر مع صورة شخصيّة. تمعّن فيهما قائلاً: «ممتاز.. نلتقي بعد شهر بنفس الموعد.» وبعد الغد، جاء حمزة الأملط إلى المقهى، وفي جيبه جواز سفري الذي ألصق في إحدى صفحاته ڤيزا مضروبة إلى سلوفاكيا. سلّمته المبلغ وأعطاني الجواز، ثم قال بأنّ شخصاً صربيّاً يطلقون عليه: «مستر هاري» سيكون بانتظاري هناك، وراح يشرح لي الخطة بالأسماء والتواريخ. لقد كلّف الأمر أن يتنازل سلام من جزء كبير من مدّخراته لأجلي، جمعتها مع ما لديّ، ودفعتها ثمناً للعيش تحت سقف آمن.

كانت الرحلة متجهة من عمّان إلى سلوفاكيا مروراً بمطار موسكو، وكنت أرتجف كسعفة نخل مبلّلة، خوفاً من اكتشاف أمري. وقفتُ في الطابور خلف سيّدة عراقيّة وابنتها الصغيرة. أمسكتُ بيد الطفلة، فابتسمت السيّدة. شعرتُ لحظتها بأنّ المرأة ترمي نحوي طوق نجاة عظيم، فمرّرت جوازي بعدهن مباشرة، ليبان الأمر وكأننا عائلة. نجحت الخطة ولم يلتفت ضابط الجوازات حينذاك بأن الڤيزا مضروبة، فمنحني ختم الخلاص. في الطائرة شكرت السيّدة بإيماءة، ومضيت إلى مقعدي. وصلنا بعد أربع ساعات تقريباً إلى مطار موسكو. كان ضابط أمن، يحمل على كتفه نجمتين، بانتظارنا على باب الطائرة. حجز جواز سفري

وقال بأني سأستلمه حال وصولي إلى سلوفاكيا. كرّر الأمر مع السيّدة وابنتها وشابّين فلسطينيَين. اقتادونا إلى صالة شبه مغلقة، وقالوا بأنّ علينا الانتظار في تلك الصالة سبع ساعات، وهي صالة الترانزيت. لقد بدا واضحاً بأنه إجراء احترازي خشية أن نخرج من المطار ونطلب اللجوء في روسيا. وعندما هبطت الطائرة في مطار سلوفاكيا وهممنا بالنزول، كان الكابتن واقفاً على الباب وبيده مظروف فيه جوازاتنا. تسلّمناها وتفرّقنا. أوقفت تاكسي وناولته عنوان الفندق الذي دوّنه حمزة الأملط على قصاصة ورق صغيرة، فأقلّني إلى هناك.

وبعد ليلتين من الخوف والقلق والجوع داخل ذلك الفندق الرخيص، حضر المهرّب الصربي الموعود؛ مستر هاري. كان في نهاية الأربعينيّات من عمره، طويل القامة، ضخم الجثة، يبعث منظره على الرهبة، وكان يتحدّث الإنكليزيّة بطريقة سيئة. قال، مستعيناً بالرسم على علبة السجائر، بأنّ عليّ ترك الفندق عند الثامنة مساءً والتوجّه إلى محطة البنزين الواقعة على بعد ميل شمالاً، ثم الانعطاف يميناً والسير لعشرين دقيقة، حيث ينتظرني هناك. انتظرت حتى حان الموعد. سلّمت مفتاح الغرفة، وغادرت صوب محطة البنزين. لم يكن من أحد هناك، وكأنّ المكان مهجورٌ منذ اكتشاف الإسفلت. انعطفت إلى جهة اليمين، مهتدياً بالرسمة على علبة السجائر. وبعد عشرين دقيقة من السير في ذلك الطريق الخارج عن المألوف، إذ بدا وكأنّه

.ا.ر. ريفيّ وسط المدينة، التمع ضوء شاحنة من بعيد لثلاث .ا. متتالية. هي الشفرة التي اتفقنا عليها في الفندق. اتجهت .. نحو مصدر الضوء مسرعاً. كانت شاحنة مغلقة، معدّة لنقل الـ..وم المجمّدة، أُلصقت على بدنها صورة عجل سمين. رأيت الـ.. هاري جالساً في الأمام قرب السائق الذي سيناديه فيما بعد الـ.ساعد كونتو. كان كونتو هذا حليق الرأس، كثير الوشم، يضع .. طرف فمه نكّاشة أسنان، ويحرّك بها مثل رادار. ألقيت عليه الـ.حية، فردّها بإيماءة مثل تلك التي يفعلها أفراد المافيا، مشيراً ..اجبَيه نحو الباب الخلفي. تبعني إلى هناك، أزاح المزلاج، .فك باب الشاحنة وأشار لي بالصعود. ركبتُ مثل أسير حرب لا يملك إلا أن ينفّذ ما يُملى عليه. أغلق الباب خلفي بالمزلاج .القفل، وعاد خلف المقود.

أيقنت، حالما وضعت قدمي في تلك الشاحنة، بأنّها ستكون .حلة مضنية، يُراق فيها المزيد من العَرَق والطمأنينة. كان جوف الشاحنة مظلماً، وصوت الأنفاس عالياً، يتخلّله همس هنا وهمس هناك. وكانت بقايا رائحة اللحوم الفاسدة تملأ المكان وتحيله إلى ما يشبه دكان جزارة بلا ترخيص. تعثّرت بساق أحدهم، فاعتذرت له بالعربيّة سهواً، لكنّه أجاب بصوت منخفض وباللغة ذاتها: «لا يهم، تعال اجلس.» ممسكاً بطرف سترتي. كان شاباً صغيراً من فلسطين، لا يتعدى عمره السادسة عشرة على أغلب الظن، قلِقاً، يقرض بأظافره ويتحدث من بين

أسنانه المطبقة. قال، بعدما جلست إلى جواره بأنّ الشرطة كانت قد أمسكت به مرّتين قبل ذلك وأودعته السجن، وأنّه لا يدري إن كان الطريق آمناً أم لا.. «أششششش.» همس أحد العجول مذكّراً إيّانا بحرمة الكلام قبل بلوغ الحدود. سارت بنا شاحنة القلق خمس ساعات متواصلة، دون أن ينطق أحدنا بحرف واحد. انعطفت بعد ذلك في طريق زراعي، ظلّت تترجرج فوقه طويلاً قبل أن تتوقف. انفتح الباب حينها وأومأ مستر هاري بالترجّل. اقتادنا، مثلَ خراف العيد، نحو خربةٍ وسط حقل مهجور. كنا خمسة عشر خروفاً، انضم إلينا خمسة عشر آخرون، في شاحنة ثانية. أفرغنا مثاناتنا في العراء، وتزوّدنا بقناني المياه وبعض قطع الفاكهة التي كانت بحوزة أحد المهّربين، وبعد نصف ساعة استؤنفت الرحلة سيراً على الأقدام. قافلة من ثلاثين مهاجراً لا شرعيّاً، يتقدمنا السيّد هاري ويتخلّف عنا ببضع خطوات، زميله الجديد الذي لا نعرف اسمه. كان كل واحد منهما يحمل مصباحاً صغيراً يتفاهمان من خلاله، فالإضاءة السريعة المتتالية تعني أمراً بالمسير، بينما الضوء المتصل يعني التوقف، هذا ما فهمته وقتئذ.

وبعد شوط من السير المتواصل لأربعة أميال، هتف مستر هاري: «Go Go Go» وكان يريدنا أن نركض، فهمنا الأمر من إشارة يده وشروعه بالركض أمامنا. أمسينا نركض خلفه بفزع لأننا لم نكن ندري ما يجري حولنا، وما مصدر الضوء البعيد

الذي بدأ يقترب. «Stop» صاح هاري، فتوقفنا، ثم أومأ بيده للبروك على الأرض، فبركنا. كنّا ننفذ الأوامر بطريقة مثل تلك التي يمارسها قطيع الخراف مع الرعاة. وضع إصبعه على فمه وقال: «أششششش»، فقد سمع صوت كلاب تقترب. كانت دوريّة شرطة تفتّش في المكان. قطعنا الأنفاس وبدأنا نترقّب ما سوف يقع. أغمضت عيني وأمسكت بتميمة أمي. كاد قلبي أن يصمت خوفاً حينها، فالوقوع بيد الشرطة السلوفاكيّة يعني النوم خلف القضبان. فتحت عيني لأسترق النظر من حولي. كان الظلام حالكاً، والأنفاس يكتمها الخوف والترقّب، لكنّ صوت الكلاب كان قد انحسر أخيراً، ليعود الدم للجريان في عروقي من جديد. أخرج مستر هاري مصباحه الصغير وأشار إلى زميله بضوء متقطع سريع، فكانت الإشارة تعني البدء بالسير من جديد.

واصلنا السير ليلاً على هيئة فصيل عسكري؛ اثنين اثنين. كنت أمسك بيد محمد الفلسطيني، الباردة والمرتجفة، محاولاً منحه شعوراً بالأمان لا أملكه. هتف مستر هاري إذ ذاك: «Go Go Go» وصار يهرول مسرعاً. هرولنا خلفه لساعتين كاملتين، كدت أموت فيهما من العطش. أفلتُّ يد محمد الفلسطيني كي لا أعيقه في الجري، وتراجعت إلى آخر القافلة. كان الجميع يركضون بخفّة إلا أنا، إذ صرت ألهث، وأضلاعي تضيّق الخناق على قلبي. توقّفت عن الجري وسقطت على الأرض. أومأت لهم بكلتا يدَي،

وناديت بصوت لم يصل أذنَيّ: «Stop Stop»، فلم يسمعني أحد. شعر زميل هاري حينذاك بتخلّفي عن المسير، فالتفتَ ليجدني واقعاً على الأرض وركبتي مدمّاة. ناولني قنينة ماء معدنيّة وأعانني على النهوض، ثم أمسك بيدي وصار يجرّني كي نلحق بهم. وبعد ساعة من الجري المتواصل اصطدمنا بسياج بي آر سي مدّعم بأوتاد إسمنتيّة منحنية النهايات. كانت الشاحنتان بانتظارنا خلف ذلك السياج، بمسافة ليست بالبعيدة. استطاع الجميع تسلّق الجدار بخفّة سواي، فطاقتي قد نفدت ولم أعد قادراً على ذلك. سلّمت أمري حينها لقدري، وبركت في الأرض مثل بعير متقاعد، قائلاً لمحمد: «لا عليك منّي، اتركني واذهب رجاءً.» لكنّ مستر هاري وزميله عادا لجذبي بقوة، وركلي إلى الضفة الأخرى. ركبنا الشاحنتين، وفهمنا من تهاني المهربين لبعضهم أننا دخلنا الحدود التشيكيّة وبتنا في مأمن من الشرطة.

دارت بنا الشاحنتان لساعات طويلة، جعلت الواحد منا يلصق أنفه بفتحات الهواء الصغيرة طلباً للأوكسجين. كانت رائحة اللحم المتعفّن، والغازات التي بدأ باطلاقها البعض دون حرج، قد أفسدت الهواء، وأحالت المكان إلى جورب عملاق لم يُغسَل منذ الحرب العالمية الأولى. وصلنا أخيراً إلى مزرعة كبيرة في أطراف مدينة براغ. ترجّلنا بهدوء واختبأنا في إسطبل للأحصنة. كان إسطبلاً مهجوراً ومليئاً بالروث والوحل، تمتد على جانبيه أفرشة بالية مرّت عليها آلاف الأجساد الخائفة. وفي طرفه مرحاض نتن ومغسلة،

منضدة متآكلة الحواف، فوقها خبز وفاكهة وبعض قطع البسكويت الصغيرة. علمنا فيما بعد بأنّ مافيا هاري للاتجار بالبشر، كانت قد جعلت هذا المكان، العابر لحدود الرثاثة، مركزاً لتجميع الهاربين، وأنّ منه ستنطلق قافلة كبيرة نحو ألمانيا. لقد وجدنا في الإسطبل ثلاث فتيات كرديّات تتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والعشرين عاماً، وعائلة أفغانيّة من أربعة أفراد، وخمسة شبّان من كوسوفو، وثلاثة من فلسطين، وعراقيَين تعرّفا عليّ قبل أن أجلس، وكأنّ وشماً فوق جبيني يشير بذلك. وفي اليوم التالي انضم إلينا رهط جديد فيه الكثير من الشبّان الصغار الذين لم يبلغوا سنّ الرشد، ليكون المجموع في النهاية أربعة وستين مهاجراً. كان لزاماً على الجميع البقاء في الداخل، والتزام الهدوء، خوفاً من وشاية المزارعين في الحقول المجاورة. أما القائد هاري ورفاقه، فراحوا يحتسون الخمر داخل الشاحنات. قضينا في ذلك الإسطبل النتن ليلتَين قاسيَتين قبل أن تجيء الإشارة بالرحيل.

ـ 20 ـ

كان منظري، بحسب زميلَيّ الإسطبل العراقيَّين، يبعث على الشفقة. فقد رميتُ لدى الحدود بين سلوفاكيا والتشيك الحقيبة، للتخفيف، ولم يبق لديّ ما أرتديه بعد استئناف الرحلة كما فعل

الآخرون. لقد ارتدى الجميع، قبل أن ننطلق، ثياباً جديدة كانوا يحتفظون بها في حقائبهم، ورمَوا المتسخة في الإسطبل. أما أنا فكان الطين يصبغني من رأسي إلى قدمي، والماء يتسلّل من حذائي الذي تمزّق لطول الجري. لكنّي رغم ذلك كنت مُصرّاً على إكمال الرحلة والظفر بوطنٍ بديل.

اصطففنا في طابور طويل؛ الشباب إلى الأمام وإلى الخلف، والنساء في المنتصف. وكان من بين الأربعة والستين مهاجراً طفلتان أفغانيّتان خائفتان، تبرّع مهرّبانِ بحملهما لئلا تعيقا حركة الطابور، بينما ظلّت أمّهما ترنو إليهما طوال الطريق. ليس الفتاتان فحسب، بل الجميع كان خائفاً يرتجف، فالحدود التشيكيّة الألمانيّة هي الأخطر من بين المسافات التي قطعناها. قال ذلك مستر هاري قبل المسير، وشرح لنا بانگليزيّته المضحكة، مستعيناً بلغة الإشارة، بأن الشرطة التشيكيّة تنشط في هذه البقعة من الأرض، وأنّ من يقع بأيديهم يكن مصيره السجن أو الترحيل القسري. زاد في خطورة تلك الحدود وعورة الأرض، والظلام الدامس الذي يغلّفها، بالإضافة إلى درجات الحرارة المنخفضة، وتلال الثلج المتناثرة هنا وهناك.

سرنا ولم نرَ ضوءاً سوى ما يتقطّع ويستمر من مصابيح المهرّبين. قطعنا عشرة أميال في الثلج والظلام، شعرت خلالها بأنّ قدمَيّ قد تجمدتا، وأنّي سأصاب بالغنغرينة لا محالة. «يا

الله! هل ستكون قدماي ثمن وصولي إلى النرويج؟!» قلتُ في سرّي وأنا أبرك على ركبتيّ كالبعير، من شدّة الوجع. لكنّ أحد المهربين زجرني بصوتٍ مثل ذاك الذي تُزجر به الكلاب السائبة حين تدنو من الطعام، ثم أمسك بيدي محاولاً إجباري على النهوض. استعنت به وعاودت المسير عاضّاً على وجعي. لحظات وسمعنا صوت كلاب تنبح. أطفأ مستر هاري مصباحه وأمر بالتوقف عن الحركة، والانبطاح على الأرض ريثما تمرّ دوريّة الشرطة. دسست وجهي في الثلج لاعناً بيضة القدر التي افقستني في هذه الدنيا، ورحت أتساءل؛ لِمَ يتناثر الأمان على الأرض بلا عدالة؟ لِمَ يتعذّب الإنسان كي ينتقل من ضفّة إلى أخرى؟ من أوصلني إلى هذا الحال؟ وكيف أمسى مصيري معلّقاً بين مهرّب ثمل وشرطة حدودٍ لا ترحم؟ ثم ماذا تخبّئ لي الدنيا من مفاجآت بعد؟ أسئلة ما كان لها أن تنتهي لولا ضوء متقطع صدر من مصباح مستر هاري.

مرّ الأمر بسلام إذن، ولم تشمّنا كلاب التشيك. وهذه، بلا شك، هفوةٌ سيسجلّها التاريخ على تلك الكلاب الغبيّة، إذ كانت لنا رائحةٌ، لنتانتها، تُشَمّ من ألف ميل! استُئنف المسير بعد دقائق من النوم على الثلج، لكنّ حدس القائد لم يكن في محله هذه المرة، وأنّ كلاب التشيك لم تكن غبيّةً كما ظننا، فقد نصبت الشرطة التشيكيّة كميناً خلف أشجار مغطاة بالثلج، واكتشفت أمرنا. أمسى الارتجال حينها سيّد الموقف، سيما وأنّ

المهرّب قد رطن، حالما شعر بالكمين، بجمل غير مفهومة. لقد فررنا يميناً وشمالاً، وتقافزنا كالشياه من أمام الكلاب التي كانت تعدو خلفنا بشراهة، وكأنّها عثرت على صيدٍ تنتظره منذ عامين. أسقطتْ هذا، وعضّت ذاك، وظلّت تطاردنا وتنبح خلفنا حتى مرّغت كرامتنا بالوحل. ثم، وبعد ساعتين من المطاردة غير المتكافئة، اكتشفنا بأنّنا تقلّصنا إلى العشرين فحسب. أما الآخرون فقد تبخّروا بين تائه في الغابات والثلوج، وبين أسير بيد الشرطة التشيكيّة. كنت من ضمن الناجين مع مستر هاري ورفاقه، الذين عرفوا كيف يفلتون من الكمين. تجمّعنا عند تلّ تنمو عليه أشجار كثيفة، وبدأ المهرّبون بتفقّد الوجوه. تفاجأنا بأنّ العائلة الأفغانيّة لم تكن من بين الناجين من التيه، بينما ابنتاهما الصغيرتان ما زالتا محمولتَين على أكتاف المهرّبَيْن الطويلين. توسّلنا لدى مستر هاري أن يعود للبحث عن الأبوَين، لكنّه لم يفعل. قال بأنّهما وقعا في قبضة الشرطة التشيكيّة على الأرجح، ثم أخرج من جيب معطفه زجاجة بيرة، أفرغها في جوفه ومسح على شاربيه، وصاح بصوتٍ يخلو من الرحمة: «Go».

مشينا خلفه وكأننا في جنازة، مصغين لنشيج الطفلتين اللتين صارتا بمنزلة اليتيمتَين منذ تلك اللحظة. اجتزنا الحدود وركبنا الشاحنتين اللتين كانتا بانتظارنا في الأراضي الألمانية. كان الاتفاق أن يوصلنا مستر هاري إلى مدينة هانوڤر، ومن هناك يُكمل كل واحد منّا طريقه. دارت بنا الشاحنتان حتى وصلنا

أطراف تلك المدينة. فرّقَنا على الطرقات بشكل متباعد كي لا يثير الريبة، وأبقاني إلى النهاية، بصحبة الطفلتين الصغيرتَين ومحمد الفلسطيني. أوقف الشاحنة أمام ڤيلّا منفردة ومسيّجة بالأشجار، ثم وضع بيدي قصاصةَ ورق، مكتوب فيها باللغة الانكليزيّة: «ثلاثة أميال شمالاً نحو محطة قطار هانوڤر.» وأمرنا بالترجّل. ترجّلنا، وكانت الطفلتان ترتعدان من الخوف. أطلق محمدٌ ساقَيه للريح، وبقيت وحيداً أواجه قدري مع طفلتَين لا يجيدان سوى نشيج التَيه. حملتُ إحدَيهما وأمسكتُ بيد الأخرى وظللتُ واقفاً، لا أدري ما أفعل! كانت لحظة يأس ظننتُ معها بأنّي تورّطت فعلاً، وأنّ جسدي سيتعفّن خلف القضبان الألمانيّة بتهمة تهريب الأطفال، لكنّ حركة دبّت في الباب الخارجي للڤيلّا، خيّبت ظنّي. أنزلتُ الصغيرة إذ ذاك من على كتفي، وجعلت أختها تمسك بيدها، وانزلقتُ خلف عمود إنارة يبعد بضعة أمتار، لمراقبة ما سيجري. انفتح الباب وخرجت عجوز طاعنة بالسنّ تلفّ جسدها النحيل بروبٍ قطنيّ أبيض. اتّجهتْ بظهرٍ محنيّ وخطوات ثقيلة نحو صندوق البريد. انتبهتْ لوجود الطفلتين أمام الڤيلّا، وسارعت نحوهما. انحنت تسألهما، لا أدري عمّاذا، ثم طوّقتهما بذراعَيها، واصطحبتْهما إلى الداخل. تنفسّتُ الصعداء وعاد الدم يجري في عروقي، فقد تخلّصت من ورطتي أخيراً واطمأننتُ على الطفلتَين، إذ لا شك أنّ تلك العجوز الرحيمة ستتصل بالشرطة، ويُحلّ أمرهما. أكملت الطريق باتجاه المحطة الرئيسيّة لقطار

هانوڤر. سينتظرني هناك رجل مربوع يرتدي سترةً رماديّة وغطاء رأس صوفيّاً أسود، ويحمل على ظهره حقيبةً صغيرة سوداء عليها علامة نايكي.

ـ 21 ـ

قبل أربعة وعشرين عاماً قدِم السيّد أيوب غزال إلى مدينة هانوڤر. تعرّف إلى سيّدة ألمانيّة تمتلك مطعماً للهامبرغر. تزوّج منها وصار يدير المطعم بعدما أضاف إلى واجهته الزجاجيّة عبارة «حلال». لكنّه لم يكتفِ بالهامبرغر الحلال، وراح يعمل في تهريب البشر والسجائر والبيرة الرخيصة. وصلنا، فأشار لي نحو الطابق العلوي. صعدنا هناك، ولم يكن سوى حمّام صغير وغرفة واسعة للعاملين. قال بأنّ عليّ أن أغتسل وأبدل ثيابي، فمظهري مثير للشك والريبة. اغتسلت وارتديت قميصاً وسترةً نظيفتين منحني إيّاهما أيوب، مع حذاء رياضيّ من ذلك النوع الذي يُباع في المتاجر الرخيصة. نظرت في المرآة وأنا أصفف شعري، كنت أبدو مثل تيسٍ هدّه طول الجري. «ما هذا يا سعيد؟! هل خرجتَ توّاً من ماراثون للتيوس الجائعة؟!» قلتُ للمرآة، لكنني سمعتُ في الأثناء صراخ أمعائي وهي تتصارع مع بعضها البعض من الجوع، فتركت المرآة في حالها ونزلت. قدّم لي أحد العاملين في المطعم سندويتش هامبرغر، بدا

،ياً. التهمته وأومأت بأنّي مازلت جائعاً، فزادني طبقاً من أصابع البطاطا المقليّة.

في عمّان أبلغني حمزة الأملط بأنّي حالما ألتقي في المحطة أيوب غزال، فإنّه سيوصلني إلى النرويج. قال ذلك في المقهى مؤكداً لي بأنّ مهمّة أيوب هي الأسهل في الرحلة، إذ لا تتعدى توصيلة شاحنته الصغيرة إلى مدينة كيل في أقصى الشمال الألماني، ثم الركوب في باخرة باتجاه أوسلو النرويجية. لكنّ أيوب غزال كان له رأي آخر، إذ اصطحبني، بعد تغيير ثيابي وإسكات معدتي، إلى شقة صغيرة في عمارة قريبة من المطعم، وأخبرني بأنه سيعود في المساء. لم يفِ بوعده، بالطبع، ومتى أوفى المهرّبون بوعودهم؟! كانت الشقة التي أسكنني فيها باردة ورطبة وسيّئة التهويّة، تقع في الطابق الثالث لعمارة مريبة، يقطنها المدمنون وبائعو الماريجوانا. رأيت حين دخلتُ هناك أكداساً من علب الكارتون، وصناديق البيرة المهرّبة، وتفاجأت بوجود عائلة كرديّة من خمسة أفراد يتكئون على بعضهم البعض مثل قطع الدومينو، وشابَّين سوريَين ينفثان دخان السجائر في وجهَي بعضهما. كان الجميع بانتظار أن يرحم بهم غزال ويوصلهم إلى شواطئ الأمان. ليس ثمة مكان للنوم، ولا مزاج للاسترخاء في تلك الشقة. كل ماحولي كان مثيراً للقلق. رأيت، والساعة تشير إلى التاسعة مساءً، ضوءاً أزرق ينعكس على النافذة، وسيّارة شرطة تقف عند مدخل العمارة، تبعتها سيّارةٌ أخرى ترجّل منها عساكر فارهو القامة يحملون الهراوات. «خلاص.. انتهيت يا

سعيد.» قلت من خلف أسناني، متسحّباً من خلف النافذة كي لا يرصدني أحد العساكر. قال لي أحد الشابّين في الشقّة:

«ما الأمر؟ لماذا وجهك أصفر هكذا؟!»

فأجبته واضعاً سبّابتي على فمي:

«أششششش.. بوليس، بوليس.»

كنتُ خائفاً من أنّ الشرطة قد جاءت للبحث عن مهاجرين غير شرعيين، فنقع بأيديهم. لذا طالبت من معي بالتزام الصمت، بعدما أقفلت الباب بالمزلاج من الداخل. لكنّ صوت بساطيل العساكر تجاوزنا نحو الطابق الرابع. أطلقتُ حينئذ سراح زفير طويل، إذ اتضح بأننا لم نكن المقصودين بالمداهمة، بل باعة الماريجوانا! شاهدت الشرطة، من خلف النافذة، يودِعون ثلاثة منهم في الخانة الخلفيّة للسيّارة بأضوائها الزرقاء. وفي اليوم التالي جاء غزال ليخبرنا بأن الرحلة قد تأجلت، وأنّ علينا الانتظار أسبوعاً كاملاً. لم يعطنا سبباً وجيهاً للتأخير، ولم يضيّع وقته في الشرح والتفسير، فالمهرّبون في العادة لا يكترثون لما يثقب رؤوس المهاجرين من علامات استفهام. كل ما قاله أنّ علينا الانتظار حتى يزول الخطر، وكفى!

أخرجت محفظة النقود وحسبت ما بقي لديّ من دولارات. سألت أحد الشابّين:

«كم أحتاج للوصول إلى مدينة كيل برأيك؟»

فردّ سائلاً:

«هل نويت السفر لوحدك؟»

قلت:

«نعم.. تأتي معي؟»

أجاب متوجّهاً إلى رفيقه:

«فكرة جيدّة.. ما رأيك شادي؟»

استحسن الأخير الفكرة وهتف:

«نرحل سويّة.»

اتفقنا نحن الثلاثة على ألّا نبقى ساعةً واحدة في شقة أيوب غزال. فالرجل، على ما يبدو، مهرّب مماطل، جعل من تلك الشقة مخزناً للسجائر والبيرة والمهاجرين. كان في قلبه خبث اقتصادي وحسبة ماديّة، ينوي بها تجميع عدد يضمن له مضاعفة الربح، لذا قرّرنا الرحيل فوراً. شجّعنا على ذلك قدرة شادي على التفاهم في الطريق بسبب عمله السابق كمدرس للغة الإنكليزية في مدينة حلب. ذهبنا إلى محطة قطارات هانوڤر. لم يكن ثمة عساكر أو دوريّات للتفتيش عن البطاقات الشخصيّة هناك كما ظننا. رأينا فقط موظّفة ترتدي سترةً مطرّزةً بشعار السكك

الألمانيّة، وتجلس مبتسمةً خلف شبّاك لبيع التذاكر، ومسافرين يحملون حقائبهم وينتظرون القطار على أرصفة الرحيل. اتجّه شادي بثقة نحو شبّاك التذاكر، لكنّه شاهد، قبل أن يصل عند الموظفة، شرطيّاً فارهاً يجرّ كلباً ويدخل إلى المحطة، ففزِع وعاد أدراجه. لقد رجع إلينا الشاب مرتجفاً من الخوف ولسانه غير قادر على النطق، ولولا أن نسارع في الخروج من المحطة لانكشف أمرنا وأمسينا ضيوفاً لدى ذلك الشرطيّ المباغت.

عدنا إلى مطعم أيوب غزال، هدّدناه إن لم يوصلنا في الحال إلى مدينة كيل، فإننا سنبلغ عنه السلطات الألمانية، وندلّهم على الشقّة التي حوّلها إلى وكر للتهريب. خضع للتهديد أخيراً، وقال انتظروني عند المقهى الكائن في الانعطافة الثالثة من الشارع ريثما أجهز. وبعد ساعة وعشرين دقيقة، أتى غزال بشاحنته الخضراء الصغيرة، التي تحمل على خاصرتَيها شعار مطعم الهامبرغر، وقال اركبوا. ركبت في الأمام بالقرب منه، بينما ركب رفيقاي مع الكراكيب في الخلف، وسارت بنا الشاحنة نحو مدينة كيل. لم يتفوّه الرجل بكلمة واحدة طوال الطريق. وصلنا إلى الميناء بعد ثلاث ساعات تقريباً. نطق أخيراً؛ قال بأنّ السفينة الراسية أمامنا ستبحر بعد خمس وعشرين دقيقة نحو مدينة أوسلو، تليها رحلة غوتنبرغ السويديّة، بحسب اللائحة. كنت الوحيد بينهم الذي ينوي السفر إلى أوسلو. حجز لي غزال تذكرة، وقال اركب من هنا وإيّاك أن تلتفت فتثير الشكوك حولك. أما صاحباي اللذان قرّرا أن يذهبا نحو السويد،

فكان لزاماً عليهما انتظار السفينة التالية. ودّعتهما حينذاك وركبت على متن سفينة عملاقة بيضاء وزرقاء، ترفع فوق هامتها علم مملكة النرويج بألوانه الثلاثة. وبعد عشرين ساعة في بحر الشمال، وصلت شواطئ أوسلو.

ـ 22 ـ

وحيداً مثل يتيم كنت أسير في جادة ستورغاتا. لا أعرف أين أذهب كي يتم إدراجي لاجئاً في مملكة النرويج. الطريق، ورغم أنها واقعة في قلب العاصمة، لم تكن مكتظّة بالمارّة، ونسبة النساء إلى الرجال ليست متفاوتة بالفحش الذي أخبرني به ذلك الشاب المتورّد الخدّين، في عمّان. حتى من أطلتُ النظر في عيونهن، متحجّجاً بالسؤال عن الطريق، لم يكترثن لي، ولم يذبن، حين مددتُ إليهن يدي شاكراً، كالزبدة في المقلاة على حد قوله. علماً بأنّي أمتلك سحنة، لو قُدّر أن سُئل عنها ديكٌ أعمى فوق جبال الهملايا، لقال بأنّ صاحبها عراقيّ ابن عراقيّ!

وقفت قبالةَ مركز للتسوق، مثبّتة على واجهته الأماميّة لافتة ضوئية زرقاء، تحمل اسم: غونريوس. دلفتُ إليه بلا غاية. تمعّنت في البضائع المعلّقة من خلف الزجاج، وخرجت من الباب

الآخر. رأيت أحدهم يقف خلف عربة عرض أنيقة، تتدلّى من سقفها الأحزمة الجلديّة والجواريب الصوفيّة السميكة والملوّنة، وترتصف فوق متنها أغطية الرأس المحليّة المحاكة من الوبر، والكفوف المصنوعة من جلود الغزلان، والمبطّنة بالفراء. اشتريت غطاءَ رأسٍ سميكاً مثل ذاك الذي يعتمره رعاة الأسكيمو، ومضيت. مشيت في الجادة الضيقة المحاذية لمركز التسوّق. كانت تتناثر فيها محال البقالة الآسيوية والأفريقية، وكان أصحاب تلك المحال يعرضون بضائعهم في الخارج على مناضد خشبية تحمل يافطات أسعار صغيرة. توغّلت في تلك الجادة حتى وصلت مطعماً بواجهة زجاجيّة كبيرة، خُطّ عليها بالعربي: «كباب حلال» فهمستُ لي: «مرحباً بأخوة اللسان.» ودلفتُ إلى الداخل. ألقيت التحية، فرَدّها شاب نحيف بلهجة يمانيّة. كان منشغلاً بتحضير طبق كباب على الطريقة التركيّة. انتظرته حتى فرغ من عمله، وسألته عن مركز الشرطة، فتبسّم قائلاً:

«هل أنت لاجئ جديد؟»

«نعم، لكن كيف عرفت ذلك؟»

«لأن لا أحد هنا يسأل عن مركز الشرطة سوى الباحثين عن اللجوء.»

«آه! هكذا إذن!»

«نعم هو هكذا.»

«وأين أجده لو سمحت.»

«لا عليك، وصلت.. قل لي أولاً، هل تغدّيت؟»

«أكلتُ في الطريق.. شكراً لك.»

ضيّفني الشاب بقدح شاي وتبرّع باصطحابي إلى مركز الشرطة. خرجنا من المطعم وأخذنا يمين الجادة. سرنا مسافة ليست قصيرة، ثم انعطفنا شمالاً لنتوقف بعد بضع خطوات. أشارَ بيده نحو بناية عالية، وعاد مسرعاً خشيةَ أن يُتّهم بتهريب البشر. كان مبنىً حكومياً مؤلّفاً من ستة طوابق تطلّ على الشارع بنوافذ زجاجية كبيرة ومظلّلة، وكان يحمل عند الباب يافطة نحاسيّة تحمل شعار الشرطة النرويجيّة.

وقفتُ وحيداً أمام ذلك المبنى الرهيب، يرجّفني البرد والخوف معاً. ضربتُ الجرسَ بحذر كمن يجسّ نوم الأسد. فُتح الباب من تلقاء نفسه، فدخلت. واجهني مكتب صغير، تجلس خلفه موظفة أنيقة. سألتني عن لغتي وبلدي. قلت: «عربيّ من العراق.» دفعتْ نحوي قصاصة ورق بيضاء صغيرة، وأومأت لي أن أكتب اسمي بالحروف اللاتينيّة. كتبته وبصمتُ على شاشة ضوئيّة أمامها، ثم تنحّيت جانباً. رفعت الموظفة سماعة الهاتف، ورطنتْ بلغةٍ لم أفهم منها سوى كلمة «إراك». جاء شرطي بعضلات مفتولة، وقامةٍ أطول من ليل الفاقدين. اصطحبني إلى داخل المبنى، وأودعني في صالة كبيرة بسقف مرتفع. كان فيها رجال ونساء وأطفال، يفترشون

الأرض مثل جراءٍ متعبة. مهاجرون لا شرعيّون كما يحلو للعالم المسترخي أن يسمّيهم. بشر هاربون من الظلم، والاضطهاد، والجوع، والحروب العبثيّة. منهم من عبر البحر متدثّراً ببقايا خيمة ممزقة، ومنهم من اختبأ تحت صندوق خشبي في حافلة مقفلة اجتازت به الحدود، ومنهم من قطع آلاف الأميال مشياً على الأقدام ليصل إلى هذه الصالة المتخمة بالتنوّع. قضيت الوقت وأنا أحصي قصص الذلّ والخوف المدوّنَة على وجوههم؛ فهذا هاربٌ من ميليشيا دينيّة تمارس الفتك بالخارجين عن حكمها، وهذا من حرب طاحنة لا تريد أن تهدأ، وهذه وصغارها من جوع لا يعرفه تجّار السلطة، وتلك من قهر الذكور وجبروتهم، أما ذاك المنزوي في الركن البعيد، فأتعبه ألّا يكون له وطنٌ، فقرّر الهجرة لاكتسابه.

اصطففنا في المساء على هيئة طابور طويل عند الباب الخلفي للمبنى. حملتنا حافلة بيضاء، كان يقودها مهاجر مخضرم يعمل لصالح دائرة الهجرة. وصلنا إلى مركز استقبال اللاجئين، ومُنحنا هويّات تحمل أرقاماً بدل الأسماء. كانت هويّتي تحمل الرقم سبعمائة وسبعة وسبعين، وسينادونني بعد ذلك: سبعة سبعة سبعة. لم أكن مكترثاً لما سينادونني به واقعاً، إذ ما دمتُ سأحصل على سريرٍ دافئ في وطن آمن، فلا ضير إن أمسيتُ ثلاثَ سبعات، أو تسع خمسات، أو صفراً على الشمال حتى. لقد امتلكتُ فيما مضى أسماء كثيرة، لكنّها لم تجلب لي الدفء. منحتني أمي، مثلاً، اسم سعيد، فكنت يتيماً مكسورَ الخاطر، لم أرَ السعادة يوماً في حياتي.

منحتني المدينة التي اندلق فيها رأسي لقب ابن دار السلام، فنشأتُ خائفاً أترقّب الحرب متى تنتهي، لتشتعل أخرى أشدّ ضراوةً وأكثر قبحاً. منحني التاريخ ألقاباً كثيرة، كابن الرافدين، وحفيد جلجامش، وابن خالة حمورابي، لكنّي لم أجنِ من تلك الألقاب سوى الخيبة والانكسار. جلس بقربي أحد اللاجئين متذمّراً، لأنّه أمسى مائةً وأحد عشر: «ما هذا بحق الجحيم؟! حوّلونا إلى أرقام يا رجل! الله يلعنهم.» فهمست في أذنه: «قل الله يلعن من كان السبب يا أخ واحد واحد واحد.» تشاجرنا عندها حول أيّ الفريقَين أحق باللعن من غيره، وعلت أصواتنا، لكنْ سرعان ما أدركنا بأنّ اللعن لن يعيد أسماءَنا المهدورة، وأننا سنمضي ما بقي من أعمارنا أرقاماً تافهةً في سجلّات اللاجئين، فهدأنا.

وبعد مضي ثلاثة وعشرين يوماً في مركز استقبال اللاجئين، جاء موظّف شاب من مصلحة الهجرة، وبرفقته مترجم عربي. عرّف عن نفسه ثم طلب مني مرافقتهما إلى هناك. قال بأنّه يُدعى المحقّق ماركوس، وسيجري معي مقابلةً شفاهيّة مطوّلة لأجل البتّ في قضية اللجوء خاصّتي. ودّعتُ زميلي، واحد واحد، واحد، وذهبت معهما. اصطحبني المحقق ماركوس مثل جروٍ مطيع نحو الطابق الثالث من المبنى. طالبو اللجوء مطيعون كالجراء الصغيرة، هذا ما يعرفه المحقّقون والمترجمون جيداً. مشينا في ممرّ طويل ثم انعطفنا يميناً نحو غرفة سريّة بنوافذ محكمة ومظلّلة. كان المحقّق الشاب صارماً، ظلّ يطرق على

رأسي بأسئلة مباغتة حتى شعرت وكأنّ عظام جمجمتي بدأت تتكسّر، وأوشكتُ على إفراغ معدتي أمامه.

ـ 23 ـ

توقفتُ على جانب الطريق، فتحت باب السيّارة وأفرغت معدتي. ثم أخرجت زجاجة مياه معدنية، شطفت بها وجهي، وشربت ما تبقى. أنهيت تفريق البريد تحت المطر، وعدت إلى الدار مبلّلاً بالماء والذكريات. وصلت منهكاً. خلعت ثيابي ووقفت تحت الدُّوشّ محاولاً إخماد ألسنة اللهب المشتعلة في رأسي. نصحني الطبيب ذات مرّة بترك البريد لأنها وظيفة تسبب لي المزيد من الضغط مما يجعل ماكنة الصداع لديّ دائمة العمل، لكنّي لم أستمع إليه، فالعثور على وظيفة جديدة يشبه الفوز بورق اليانصيب الذي يتطلب صبراً طويلاً وحظاً وفيراً لا أمتلك مثلهما.

في الواقع، أنا لم أظن يوماً بأنّي سأغدو ساعيَ بريد، ولم أخطّط لذلك مطلقاً، ولولا أمي وحاجتها إلى المال، لاستغنيتُ عن الوظيفة، وعدت إلى دراسة الأدب من جديد. ليس من الصعب أن أحظى بمكان في إحدى الجامعات النرويجية المنتشرة على طول البلاد وعرضها. مالي أنا والبريد؟ كيف مات حلمي في الكتابة

وذاب في محرقة الحياة؟! كيف قضت نكتةٌ تافهة على حياتي وجعلت أيامي مظلمة مثل قبوٍ مهجور؟! أسكتُّ الدُّش وخرجت عارياً. أطفأت هاتفي الجوّال بشكل نهائي ورفعت سماعة الهاتف الأرضي منعاً للإزعاج ثم التهمت قرصاً منوّماً، وغطست في الفراش.

- 24 -

بعد ثلاثة أيام من جلسة التحقيق، جاء الخبر بأنّ قوائم التوزيع على المراكز الدائمة قد وصلت، وتم تعليقها على لوحة الإعلانات لدى الباب. كان الاختيار آنذاك يتم بشكل عشوائي، يلعب الحظ فيه دوراً كبيراً. ذهبت عند اللوحة، فاكتشفتُ بأنّ النحس ما زال يلاحقني! لقد رُكِلتُ نحو مدينة آلتا، أقسى مدن الشمال برداً وأشدّها عتمة. طرتُ بعد يومين إلى هناك، برفقة ثمانية لاجئين آخرين، عرباً وكورداً. أخبرَنا المشرف على مركز الإيواء، ساعة وصولنا، بأنّ ندف الثلج ستستمر بالهطول لثلاث ليالٍ حتى ترتفع إلى ما يزيد على المترين، وأنّ درجات الحرارة ستهبط إلى ما دون الصفر بثلاثين درجة مئوية. «ويلك يا سعيد!» ولولتُ حين سمعته، فردّ الذي يقف بقربي: «ما زال الوقت مبكراً على الوَلْوَلة يا رجل.»

كان المركز بيتاً كبيراً بثماني غرف، يقع في قرية تبعد أربعة أميال عن مركز المدينة. سقف البيت مغطى بالثلج، وما تحت السقف ليس بأفضل حال مما فوقه. كان الموقد يلتهم بشراهة ذئبٍ قطعَ الخشب الصغيرة، ويظل فاغراً فمه حتى الصباح، مطالباً بالمزيد. وزّعنا آنذاك على الغرف الثماني الصغيرة، ورحت أشاطر لاجئاً من السودان، وصل قبلي بثلاثة أشهر. كانوا يطلقون عليه لقب عثمان اللا مكترث. أتذكر بأنّي قلت له في ذلك المساء، رغبةً في الثرثرة:

«تعرف! الحياة تحت الصفر موت بطيء..»

لكنّه لم يجبني، ولم يشاطرني الحديث، واكتفى بدفع بوزه إلى الأمام دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. وحين كرّرتُ عليه الكلام خمساً وثمانين مرّة نطق أخيراً وهو يحرّك يده في الهواء كأنّه يطرد ذبابة: «لا أهتم.» ثم عاد إلى صمته! كان شخصاً غريب الأطوار، لكنّي ظللت أطرقه أذنَيه بالكلام حتى حللتُ عقدة لسانه. قال بأنّه لاجئ عربي مع سبق الإصرار والترصد، فرّ من السودان نحو مصر، وغادرها بعد عامين إلى ليبيا، ثم ركب البحر ليصل إلى إيطاليا على متن زورق متهالك. لم يلبث في إيطاليا سوى عام واحد رغم حصوله على عمل سهل هناك. لقد اشتغل راعياً في مزرعة أبقار تملكها سيّدة إيطاليّة بدينة تعاقدت معه على بندين اثنين: رعي أبقارها في النهار، ومضاجعتها في الليل. أقسم على

ذلك، مُطلقاً آهةً بذيل أخرى. وبعد عام من الوظيفة الحلوة، على حد وصفه، وشى به أحدهم لدى البوليس الإيطالي، لأنّه لا يحمل تصريحاً للعمل، فغدا مطارداً. هرب من المزرعة قبل أن تصله الشرطة وظلّ يتنقل من مدينة إلى أخرى. التقى في النهاية بعائلة عربية، كانت تسيح في إيطاليا. تعرّف إليهم وأخبرهم بحكايته المؤسية، فحملوه معهم في صندوق السيّارة إلى النرويج، حيث يقيمون. كانوا كلما اجتازوا حدود دولةٍ ما، توقفوا قليلاً ليسمحوا له بالتزوّد بالأوكسجين والعودة إلى مخبئه مثل جرذٍ أسير. كان يروي الحكاية وهو يضحك، وعندما سألته عن السرّ وراء البرود في سرد ذلك التشرّد المفجع، قال بأنّ مؤخرته قد أدمنت ركلات الحياة، وأمسى لا يكترث.

في أحد الأيام أخبرته بأنّنا لا نملك ما نأكله، وأنّ علينا الذهاب إلى متجر الأغذية لشراء الخبز، فرفض أن يرافقني متحجّجاً بأنّ الظلام يلفّ القرية، والجليد يغطي الطريق بشكل تام ويجعلها زلِقة. لم تكن المسافة إلى المتجر الوحيد في القرية طويلة، بيد أنّ الكسل الذي تمكّن منه، جعله يرفض مصاحبتي إلى هناك. كان يردّد بأنّ الحياة لا تستحق كل هذا العناء، وأنّ لا أحدَ يموت بسبب الجوع، لكنّي أغلقتُ أُذنَي إعراضاً عن سماع أسطوانة اليأس التي يجيد عزفها، وخرجت. وجدتُ بأنّ الظلام يُغرق القرية حقاً، والثلج الذي أزاحته الجرّافة، يخلّف على الإسفلت طبقةً زجاجيّةً يصعب السير عليه. عاينت الترمومتر عند الباب، فإذا به يشير

إلى الثالثة والأربعين تحت الصفر! شعرتُ حينها بسهام الهواء الباردة تنغرز في وجهي، وفقدتُ الإحساس بأنفي وفمي بعد عدة خطوات فحسب. ثم شيئاً فشيئاً راحت الدموع التي ذرفتها جراء البرد، تنجمد فوق رمشَيّ وعلى خدّي، بينما تجمّد شاربي وغدا كأنّه مكنسة قش. نظرت ورائي فرأيت عثمان يلوّح لي من خلف الزجاج أن أعود، فزدتُ عناداً وإصراراً على إتمام المهمة. مشيت على الجليد بصعوبة بالغة وحذر شديد. قطعت شوطاً طويلاً نحو الخبز حتى كدت أن أصل في النهاية، لكنّ خطوتي الأخيرة تعجّلت، فانزلقتُ وسقطت. دوّن المسعفون الخسائرَ، فكانت: يداً مكسورة سنّاً مفقودة ومعدة خالية. أقسمت يومها على مغادرة تلك المدينة حتى لو أمطرت السماء فوقها بدل الثلج ذهباً. حملتُ حقيبتي، بعدما تعافيت تماماً، وعدتُ بالطائرة إلى أوسلو.

ـ 25 ـ

لم أكن أجيد النرويجية بعد، وليس ثمّة من ينتظرني لدى باب القادمين هناك. نظرت من بعيد. رأيت هاتفاً عمومياً منتصباً قرب ماكنة قطع التذاكر. اتجهت نحوه. حشرت بطاقة الاتصال الدولي فيه وضربت رقم هاتف بيتنا في بغداد. رفعت أمي السماعة وانهالتْ عليّ بالسؤال. كان صوت لهفتها يصلني

ويمزّق قلبي. لكنّي شعرت، في النهاية، بنوع من الأمان يصعب تفسيره، فودّعتها وأنهيت المكالمة. خرجتُ باتجاه غرفة التدخين.

«يا سيّد.. يا سيّد..» هتف أحدهم خلفي.

التفتّ نحوه، كان مسافراً يحمل حقيبتي.

«آه، لقد نسيتُها، شكراً لك.» قلتُ.

«هل أنتَ عربي؟» سألني وهو يبتسم.

«نعم، أنا عراقي.» أجبته.

«أهلاً بك، أنا رشيد من المغرب.» قال معرّفاً عن نفسه.

شعرتُ لحظتئذ بأنّ قدراً حانياً يرمي نحوي طوق نجاة.

«تبدو مريضاً! هل أنت على ما يُرام؟» تساءل رشيد مشفقاً.

«لا، لستُ مريضاً، بل تائه.» أجبته، وانفلتت من صدري حسرة ساخنة.

دلفنا إلى غرفة التدخين. قال وهو يمدّ القدّاحة بالنار ليشعل سيجارتي: «ما رأيك بالعمل معي في ورشة لتفكيك السيّارات التالفة؟» وافقت بلا تردد. قطعنا تذكرتَين وركبنا القطار النازل من المطار باتجاه مركز المدينة. كانت أوسلو شبه خالية لشدّة ما نزل فوق رأسها من صقيع. تناولنا الشاورما لدى مطعم تركي

صغير، وخرجنا باتجاه المترو. ومن هناك ركبنا إلى حيّ ستوفنر، حيث تقع الورشة. كانت كراجاً محاطاً بسياج إسمنتي عالٍ، تزدحم فيه قطع السكراب، وينتصب في طرفه الأيمن كرفانان. واحد كبير يلتهم العفن أطرافه، كان مناماً للعمّال، وآخر صغير للإدارة والبيع. أما في الطرف الآخر فيقابلهما كرفان ثالث خُصّص لخزن قطع السكراب السليمة بعد فكّها.

يبتاع رشيد المغربي السيّارت العاطلة والخارجة عن الخدمة، ثم يقطّعها ليستخرج منها ما ينفع كأدوات احتياطيّة للبيع، أما الزائد فمصيره معامل تدوير الحديد. كان تقطيع السيّارات شاقّاً ومتعباً، والكرفان الذي أنام فيه، بعد ساعات العمل الطويلة، سيّئاً وغير مناسب للاستخدام البشري. كان صندوقاً ضيّقاً ورطباً، تسير فوق أضلاعه خرائط من العفن والبكتيريا. فيه سرير خشبي من طابقين. ينام على طابقه العلويّ مورتن؛ المهاجر الكوسوفيّ الأخرق والمصنّف الأول عالمياً بالشخير والنتانة. كان لا يغتسل إلا مرّة واحدة كل ألف عام، ولا يحرجه إن خرجت نوطات العزف، عند النوم، من فمه، أم من مكان آخر. ضحكت كثيراً وأنا أستمع أول ليلة لتلك المصيبة فوق رأسي، وبكيت كثيراً، ولم أنم حتى الصباح. لكنْ، مع الأيّام أيقنتُ بأنّ الضحك حين يختلط بالبكاء، يدلّ على أنّ منسوب التفاهة في الحياة قد ارتفع، وأنّ لا حلّ لديك سوى المضيّ معها حيث تريد.. فمضيتُ.

ذات ليلةٍ هبّت عاصفة ثلجيّة جعلت من الكرفان يغدو وكأنّه فريز عملاق لحفظ السمك. الحرارة انخفضت إلى ما دون الصفر بثمانية وعشرين درجة، وجهاز التدفئة تعطّل. راحت أضلاعي تتراقص من البرد، وأسناني تصطكّ بلا رادع. أشعلتُ مدفأة صغيرة كانت متوفرة، وتغطّيتُ ببطانيتين بائستَين ولحاف دبق مرّ على عشرات الأجساد قبلي. تسرّب بعض الدفء إلى عظامي، وغفوت، لكنّها غفوة لم تدمْ طويلاً. إذ نغّصتها هزّة أرضيّة عنيفة لم يتسنّ لي معرفة مقدارها على مقياس رختر. كان السرير يهتزّ بعنف، ولهاث مورتن يخترق الأغطية رغم صخب الرياح. رفعت رأسي من بين تلك الأغطية النتنة، كي أرى أيّة كارثة حلّت بنا في تلك الساعة، فوجدت مورتن مستيقظاً يضاجع كفّه في الفراش! لم يجد الأخرق مكاناً يستمني فيه إلا فوق رأسي! ثم جلس في الصباح ليشاركني الإفطار قبل أن يغتسل من قذارته. سحبت يدي من الطعام حينها، قائلاً:

«أكمل أنت، أنا شبعت، سأسبقك إلى العمل.»

«أوكي، أوكي ماي فريَند» أجاب وهو يحشر بيضةً مسلوقة، بأكملها في فمه، ويسرطها كثعبان جائع.

قبل أربعة أعوام، جاء مورتن إلى النرويج مهاجراً من كوسوفو بعد تجربة فاشلة في ألمانيا. لم يكن قاصداً مملكة الثلج، كما يسمّيها، لكنّه اضطُرّ لذلك بعد رفض السلطات الألمانية لطلب

اللجوء الذي تقدّم به هناك. في ذلك اليوم قرّرت ألمانيا أن تعيده
إلى بلده، وأوشك الأمر أن يتم، لو لا أنّه باغت الشرطيّ المكلّف
بإعادته وأفلت منه. لقد تحجّج بأنّ مثانته توشك على الانفجار مما
جعل الشرطيّ يوقف السيّارة أمام دورة مياه متنقلة على الطريق،
فباغته وأفلت. فرّ نحو منحدر تغطّيه أشجار الصنوبر الكثيفة،
وظلّ مختبئاً حتى ساعة متأخرة من الليل. استقلّ في الصباح
الباكر القطار، بمساعدة مزارع طيّب، إلى مدينة كوبنهاغن، ثم
أكمل وجهته نحو النرويج عن طريق البحر. تقدّم بطلب لدى
مصلحة الهجرة هنا، ورُفض أيضاً بدعوى البصمة التي تركها في
سجّلات اللجوء الألمانيّة، ومنذ تلك الساعة وهو يعمل متخفيّاً
في ورشة رشيد المغربي. لقد أسمعني مورتن قصته مع الهجرة
ألفاً وتسعمائة وتسعين ومرة، حتى حفظتها كما يحفظ الآباء
أسماء بناتهم ويلحّنونها. وفي كل مرّة أستمع إليه، كانت تنتابني
حالة من الخوف والهلع، خشية أن يكون لي مصير كمصيره.

في الواقع، لم ترفض مملكة الثلج بعدُ طلبي، ولم يقرّر أحدٌ
طردي، لكنني كنت خائفاً، أحاول الإفلات من مورتن كلما شرع
بسرد حكايته. لقد اعتدتُ في كلّ صباح أن أسأل رشيد عمّا إذا
وصله شيء في البريد يخصّني، فيجيب بالنفي، تاركاً إيّاي تحت
رحمة شريكٍ أخرق، في كرفان غير صالح للاستخدام البشري.
لكنّ الحال لم يدم طويلاً، فقد داهمتنا الشرطة النرويجيّة ذات يوم
بكامل عدّتها، لتلقي القبض على مورتن الكوسوفي، ويتم ترحيله

إلى بلده. كانت وشاية من أحد الزبائن إثر خلافٍ مع صاحب الورشة.

- 26 -

في أحد الصباحات الباردة أمسكتُ منشاراً كهربائياً واتجهت نحو سيّارة مرسيدس نوع 350 أس. كانت سيّارة حديثة اضطرّ صاحبها إلى بيعها خردة بعدما تهشّمت في حادث مروري. فككت الإطارين الخلفيين للإفادة منهما، ونزعت الصندوق، ثم قلبتها على ظهرها وشرعت بفصل أجزائها السليمة عن بدنها بواسطة المنشار الكهربائي والمفكّات. وضعت من بعد ذلك علامة على كل قطعة سليمة كي تسهل مهمتي في التصنيف. وشطبت، في النهاية، على البدن بالبوية الحمراء، حاملاً القطع السليمة إلى المخزن. وضعت كل حاجة في مكانها المخصّص هناك، وعدت إلى إكمال عملي مع سيّارة أخرى. في الأثناء وصل رشيد وهو يحمل على كتفه حقيبة، اعتاد أن يضع فيها علبة طعام صغيرة، وبعض الأوراق التي تخصّ العمل. نادى عليّ. فتح الحقيبة، وناولني مظروفاً أبيض، عليه شعار دائرة الهجرة النرويجيّة. فضضتُ المظروف بارتباك، فكانت رسالة طويلة باللغة النرويجية. لم تكن لغتي جيدة لتساعدني على معرفة المكتوب، لكنّ كلمةً

يتم تداولها كثيراً في المناسبات، كانت تنتصب في السطر الأول للرسالة؛ Gratulerer.

«رشيد.. مكتوب مبارك، ماذا يعني؟» قلتُ.

تناول رشيد الرسالة من يدي وراح يقرأها بسرعة وبصوت منخفض. شعرتُ بأنّ خبراً سعيداً في طريقه نحوي. فتح الرجل ذراعيه وهتف: «مبارك يا سعيد، لقد حصلتَ على اللجوء في النرويج.» فاحتضنته وبكيت.

أخيراً حصلتُ على وطن بديل يا الله! أخيراً صار من حقّي الشعور بالأمان. أخيراً ستنتهي الفزّة. هذه اللازمة المصاحبة لكل طرْقة بابٍ، والتي يعرفها كل من عاش أيام الرعب هناك. كنّا نثب كلما سمعنا في الليل طرقاً عنيفاً على الباب، فغزوات الليل آنذاك، كانت غالباً ما تنتهي بالسحل نحو سراديب الضياع.

في اليوم التالي أهداني رشيد قاموساً ضخماً، ومجموعة كرّاسات قال بأنّها ستنفعني كثيراً في مدرسة تعلّم اللغة. «اطمئن، سألتهمُ النرويجيّة كما يلتهم مورتن البيض.» عقّبتُ، وضحكنا.

شقراء في السادسة والعشرين من عمرها، طويلة بغمّازتَين نادرتَين، لعينيها زرقة بحر الشمال، ولصدرها عنفوان جبال بيرغن. قالت، وهي تمدّ يدها للمصافحة عند باب القاعة، بأنها معلّمة اللغة، تونا ينسين، والتي ستكون معنا طوال العام. كانت رقيقةً، تشبه إلى حدٍ كبيرٍ لا أحد، فبعض النساء لا يمكن إخضاعهن إلى ماكنة التشبيه المجحفة، فإن أُخضِعن عنوةً، ظهرت النتيجةُ أنّهن لا يشبهن إلا هذا اللا أحد. لقد أربكني حسن تلك المرأة ورقّتها، وجعلني أشك بأنّها خُلقت من عسل ليس إلا.

واظبت على حضور دروس اللغة، وصرت أصل مبكراً مثل تلميذ مثابر. لم أكن مهتماً لصيغة الفاعل والمفعول بصراحة، ولا لعدد أحرف العلّة وطريقة نطقها، بل كل ما كان يشغلني هو الظفر بابتسامة من تونا تصنع بها بهجتي. وقفتْ ذات يوم تشرح على اللوحة موضوع الضمائر، وقد أوضحت الفارق بين كلمتَي du وdo المتشابهتين لفظاً والمختلفتين معنى. كنتُ شارداً حينها، وعقلي في مكانٍ آخر. لم يكن بعيداً، في الواقع،

بل عند شفتِها السفلى تحديداً، مطلقاً العنان لخيالٍ بِكر يؤلف قصصاً لا تخاف مشرط الرقابة. وفي الأثناء باغتتني، سامحها الله، وطلبت منّي وضع المفردة الأولى du والتي تعني «أنت» في جملة مفيدة. كانت تنادي عليّ «سعيد، سعيد، سعيد..» لكنْ، دون جدوى، فقد كنت تائهاً في ملكوت الشفاه، أراها تنادي، ولا أسمعها. صرختْ عندئذ: «سعيييد»، فانتبهتُ، «نعم، نعم آنسة تونا، تفضّلي.» قالت: «تعالَ إلى هنا من فضلك، ضع كلمة du في جملة مفيدة.» مشيت على استحياء نحو السبّورة. تناولت الطباشير من يدها وكتبت بخط عريض «Jeg elsker do» فضحك الجميع منّي بصوتٍ عالٍ، وكادت الآنسة تونا أن تقع على الأرض من الضحك. كنتُ مندهشاً، أبادلهم ابتسامة بلهاء، دون أن أعرف النكتة التي جعلتهم يضحكون هكذا. تبيّن فيما بعد بأنّ الجملة التي كتبتُها كانت: «أنا أحب المرحاض.» لأن do تعني مرحاضاً في اللغة النرويجية، بينما كنت أنوي كتابة: «أنا أحبك.»

لقد أحببت تلك الفتاة، وأطلقتُ عليها، بعدما تعلّمت ترتيب الكلمات وصياغة الجُمل: «Honning slurk» وتعني لعقة العسل. كانت تضحك كلما ناديتها بذلك، وتعلّق بأنّها لا تحب العسل! يعجزني هذا البون الشاسع بين اللغات، ويقتلني حين لا يفهم الآخرون ما تعنيه هذه الكناية أو تلك. ذات مرّة قلتُ لإحدى الفتيات في المترو: «أنتِ تفاحةٌ» فاضطربتْ

واعترى الخوف عينَيها ظنّاً منها بأنّي سوف أنقضّ عليها وآكلها.
وفي أحد الأيّام كنت في اجتماع مع موظفة في إحدى الدوائر الحكوميّة، فقلت لها مجاملاً: «أنتِ جميلةٌ، وخدّاكِ يشبهان الرمّان.» فوقفت حين سمعت ذلك، واتجهت صوب ثلاجة صغيرة في مكتبها، فتحتها وقالت: «للأسف ليس لديّ رمّان كما ترى، هل ينفع العنب؟» كانت تظنني قد اشتهيت رمّانةً في تلك الساعة!

في نهاية الفصل الدراسي الأول طلبتْ منّا لعقةُ العسل أن نكتب مقالاً بصفحتين كاملتين، كاختبار في القدرة على التعبير، وكانت قد تركت لنا حرية اختيار الموضوع. أتذكّر بأنّي كتبت حينها أربع صفحات عن تلاقح الحضارات، والمجتمعات الملّونة، والاندماج بين الشعوب. ثم ختمت المقال بسنّارة صيد ميؤوس منها: «يحلم ابن حضارة الرافدين أن يستضيف معلّمته الجميلة، ابنة حضارة الفايكنغ، على فنجان قهوة في بيته. لكنّه يظنّ، خيّب الله ظنّه، بأنّ القَدَر اللعين سيكون لهذا الحلم النبيل بالمرصاد.» بَيْد أنّ ما حدث ذلك اليوم كان مفاجئاً للغاية، إذ فرست السنّارة، لا أدري كيف، وأكلت السمكةُ، بمحض إرادتها، الطُعم! لقد أرسلتْ خلفي الآنسة تونا لتقول: «أعطني عنوان بيتك يا سعيد، وسآتيك مساء السبت، لتطمئنّ بأنّ القدر لا يتربّص بالأحلام النبيلة.»

جمعتُ قطع الثياب المتناثرة هنا وهناك. وضعتها في الغسالة. شطفت القدور والأواني المتراكمة منذ يومين في الحوض. لملمت الكتب والمجلات المبعثرة. كنست الصالة. رتّبت ما فوق التلفاز، وجلستُ أفكّر؛ يا ترى أين عليّ أن أستقبل ضيفتي يومَ غد؟ في الصالة؟ أم في البالكون؟ هل نحتاج إلى غرفة النوم؟ هل ستدخل تونا المطبخ من أجل أن تطهو لنا الطعام بعد شوط طويل من اللعب؟ ثم هل حقاً سنلعب، أم أنّ جدول زيارتها سيقتصر على مناقشة تلاقح الحضارات فحسب؟ ربما ليس ثمّة داعٍ للقلق، فضربة الحظ النادرة التي أغرزت سنّارتي، لا شك أنها طويلة المفعول، وستقودني إلى ما هو أبعد من حديث ودّي. سأدعوها أولاً إلى تدخين الأرجيلة في البالكون، وشرب الشاي العراقي الحلو هناك، بدل القهوة النرويجية المرة. الحلاوة ضرورةٌ في ليالي السمر. ثم أدخلها إلى الصالة كي أقدّم لها النبيذ الأحمر الفاخر، والأبيض كذلك، فأنا لا أدري بعدُ أيّ نوعٍ تفضّل. في بغداد لم نعتد شرب النبيذ. كان العَرَقُ سيّد الساحة وكاهنَ الحانات، لكنّ تبديل الشراب من لوازم

الاندماج في الأوطان البديلة. إلى جانب النبيذ على الطاولة سأضع مزّة الشراب. لن أتنازل هذه المرة عن كونها مزّة عربية وليذهب الاندماج إلى الجحيم. لا طعم للشراب، ولا أُنسَ للشاربين دون مزّة عربيّة. سأسلق الحمّص على نارٍ هادئة، وأعصر عليه ليمونتين حامضتين، مع رشة ملح سخيّة. إلى جوار الحمّص المسلوق سأضع صحن تبّولة، وصحن جاجيك، مع مكسّرات شرقية من تلك التي يبيعها صاحب البقالة، كاكا سيروان. سأبتاع منه جوزاً ولوزاً وفستقاً وبندقاً، وكل ما يندرج تحت قائمة المكسّرات الشرقيّة العظيمة، ولن أنسى، حتماً، شرائح البطاطا المملّحة وحبّات الزيتون، وفيلماً رومانسيّاً يُشعل ليلَنا.

حسناً عليّ أن أذهب الآن، قلتُ في سرّي ثم أبدلت ثيابي وخرجت. ابتعت لوازم المزّة من كاكا سيروان، وعرّجت على حانوت قريب يبيع السيديهات. طلبتُ من البائعة أن تجد لي فيلماً يناسب حفلة صغيرة لافتتاح مشروع حُب جديد.

«من فضلكِ هلّا وجدتِ لي فيلماً يحوي لقطات حميمية؟!» قلتُ.

«مممم، يبدو أنك على موعد حميمي!» أجابت وهي تبتسم.

«نعم، حميمي جداً، حميمي جداً، حميمي جداً، جداً، جداً..» ظللتُ أردّد مثل شريط الكاسيت.

«حسناً، فهمنا، خذ هذا لعل فيه ما تبحث عنه.» أسكتتْني بواحد.

تناولت القرص من يدها، وعدتُ إلى شقتي. جلست على الأريكة أنظر إلى صورة البطلة على الغلاف. غداً ستحضر تونا. سأطفىء الأضواء وأجعل الفيلم يدور. سأراقبها بطرف عيني وهي تشاهد البطلة تتأوّه تحت ظلّ البطل، ويداهما متشابكتان. من يدري؟! ربما تميل ضيفتي برأسها على كتفي، أو تدسّ يدها في يدي، أو تتأوه كالبطلة في الفيلم! ولكنْ؛ حين ينتهي الفيلم، وتفرغ قنينة النبيذ، ماذا سيحدث؟ هل ستطلب مني ضيفتي حملها إلى غرفة النوم؟ أم أنها ستقف وتراقصني، ثم تفقد التركيز وترمي بجسدها على صدري، فأحملها إلى هناك؟ لا أدري، لا أدري. لا بدّ أن أقوم بصولةٍ لتنظيف غرفة النوم أولاً، ثم أعود لرسم المشهد من جديد.

أبدلت الشرشف بآخر، يليق بتونا، فذاك قديم قد لا تعجبها رائحته. فتحت النافذة. منذ شهرين لم أفعل ذلك. نوافذ العزّاب مغلقة على الدوام. كنست الأرض، وأحضرت شمعتين معطّرتين. الشموع المعطرة واجبة في مثل هكذا ليالٍ، فهي تؤدي دورَين في آن واحد؛ العطر البارد والضوء الخافت. هذان الأمران حين يجتمعان، ترخى لهما القلوب، كما أخبرتني منصورة قدّوف، زميلتي في مدرسة اللغة.

كانت سيّدة إريترية، تتكلم اللغة العربية بشكل مضحك؛ تؤنث ضمير المذكر، وتذكّر ضمير المؤنث، وتجمع المفرد وتفرد المثنى.

وكنت أمازحها كلما تكلّمت معي بالعربية: «دعي العربي بحاله وتكلّمي بالنرويجي أرحم لي ولك.» ورغم ذلك، كانت لا تتوقف عن إبداء النصح لي. تقول بأنّ على الرجال توفير نتفة من رواتبهم الشهرية لأجل شراء الشموع المعطرة، فسحر هذا النوع من الشموع لا يمكن وصفه. أقسمتْ على ذلك بأيمان مغلّظَة. سألتها بعدما انتهت من إسداء النصيحة:

«وهل يرتخي قلب زوجك حين يراكِ تفعلين ذلك؟»

فقالت:

«لا أدري، لكنه حين يشم رائحتهن، يمارس فحولته معي وينام.»

لوهلةٍ فكرتُ؛ أنّ لا فرق عندي إن استيقظ الحب في قلب ضيفتي أو الشهوة، فالأمر سيّان لشاب أعزب يعيش بين مئات العجائز. لكنني سرعان ما طردت تلك الفكرة البدويّة من رأسي حين تذكرت من ستكون تلك الضيفة. إنها تونا ينسين، الحبيبة التي ادّخرها لي الزمان مشكوراً.

في الغد وقفت ألقي نظرة أخيرة بعد إكمال التجهيزات، «حسناً، كل شيء رائع، ولم يبق لي سوى أن أستحم.» قلت في سرّي. رميت ثيابي ووقفت تحت الدُّشّ. بدأ الماء ينهمر بحنوّ، لكنّي لم أكن شغوفاً به هذه المرّة، ولم أشعر باللذّة التي يوفّرها لي الحمّام الدافئ بالعادة. كان عقلي عند الباب، فمن ينتظر، يصوّب أذنَيه نحو الباب دون أن يشعر. كنت أترقب وصول تونا، مع أنّ الوقت لم يزل

مبكراً. أغلقت الماء وخرجت. سكبت على جسدي ما تبقى من
قنينة العطر، ولبست قميصاً لم أدشّنه من قبل، ثم أوقدت الشموع
المعطّرة، وجلست في الشرفة أراقب وصول الحافلة. يا الله، كم
يبدو الوقت ثقيلاً لمن ينتظر!

ـ 29 ـ

تذكّرتُ، وأنا أراقب من الشُرفة وصولَ تونا، تلك الليلة التي عدت فيها متأخّراً إلى البيت. لم يكن ثَمّة ركّاب في الحافلة آنذاك. كنت وحيداً أجلس في المقاعد الأخيرة، بينما السائق يدندن مع موسيقى البوب الهادرة من المذياع. توقفت الحافلة عند المحطة اللاحقة. ركب أحدهم. كان يرتدي معطفاً صوفيّاً أسود، وجزمة طويلة، ويعتمر قبعة كوبليك ذات الوبر الكثيف الأسود. جلس خلف السائق. سارت الحافلة مسافة محطتين دون أن يركب أحد. كان الوقت متأخراً بعض الشيء. أضأت المصباح من فوقي وانشغلت بقراءة كُتيّب في يدي. رفعت رأسي، فرأيت الرجل الغريب ينزف من خلف أذنيه، ويسيل الدم على كتفيه. فركتُ عينَيّ لعلّ الرؤية تتضح. كان ينزف فعلاً، ودمه يتسربل إلى الحافلة ليملأها. ارتفع منسوب الدماء وبدأتُ أختنق، التفت الرجل النازف نحوي، فكان أبي. اقترب منّي،

أ ا اح الوشاح الملطّخ بالدماء عن وجهه، لكنّ الحافلة اصطدمت بمدار حديدي، فتكسّر الزجاج وتلاشى أبي. انتبهتُ، لأجد بأنّي كنت نائماً في الحافلة وقد فاتني النزول في محطتي.

ـ 30 ـ

تناولت المعطف من يدها، شممتُه وقبّلته دون أن تراني، ثم علّقتُه فوق الشمّاعة المنتصبة خلف الباب. تغلغل عطرها في جسدي، وشعرتُ بالنشوة. تبعتها إلى الصالة. قالت بأنّ شقتي جميلة. هززت رأسي وابتسمتُ شاكراً. دعوتها للجلوس في البالكون أولاً، فقد أعددت هناك جلسة شرقية، ستكون الخطوة الأولى في تلاقح الحضارتَين؛ ميزابوتاميا والفايكنغ. في المنتصف تقف أرجيلة بغداديّة مزخرفة باللازورد، يعتليها فنجان فخاريّ معبّأ بخليط العنب المخمّر منذ نكسة حزيران 1967م. فوق الفنجان تستريح جمرتان متوهّجتان، كأنهما حجر الزمرّد الأحمر، وقرب الأرجيلة منضدة ينتصب فوقها سَماور تفوح منه رائحة الشاي المُهيّل، وأقداح مذهّبة وأنيقة كعرائس الأناضول.

«يا الله! ما كل هذا يا سعيد؟!» قالت تونا، فأجبتها غامزاً عيني: «إنها جلسة ملكيّة، أعددتها لأجمل معلّمة في شبه الجزيرة

الإسكندنافيّة.. تفضلي بالجلوس آنستي.» ضحكت ضيفتي
الجميلة، وغمزتْ عينها هي الأخرى، فتيقّنتُ بأنّ الأمور تسير
بالاتجاه الصحيح، وأنّ ضربة الحظ الرؤوم ستكون طويلة الأمد
هذه المرة.

لم تكن ضيفتي قد جرّبت تدخين الأرجيلة من قبل، لذا
شعرتْ، للوهلة الأولى، بصعوبة الأمر. لكنني أخبرتها بأن
استخدام الأرجيلة أسهل من التصفيق، وما عليها سوى شفط
الدخان، والاستمتاع به داخل الرئتين. وبعد ربع ساعة فحسب،
كانت تونا تسحب نَفَساً وتكبس بالثاني، ثم تناولني إيّاها بحسب
قوانين الأرجيلة العتيدة. أجمل ما في الأمر أنّ النبريج كان يتنقل
بيننا دون أن أُبدِل المبسَم. من الغباء تغيير المبسم عند مشاركة
الأرجيلة مع النساء. لقد تبدّل طعم الدخان بعد نفسَين من فم تونا،
وصار عنباً بالعسل. تهاوت أسيجة الخجل من بعد ذلك واحداً
تلو الآخر، وبدأت الضحكات تتعالى وسط غيمة من الدخان.
كنت أروي لها نكاتٍ بذيئة، وكانت تضحك على لغتي الركيكة
أكثر من النكتة ذاتها. لقد حكيت لها سبعة آلاف نكتة وخمسمائة
وخمسين موقفاً، حتى شعرت بأنّها ستموت من الضحك. لا
شك أنّي بدوت لها كما كانت تبدو لي منصورة قدّوف وهي
تطقطق بالعربي، فالمرء يضحك حين يستمع لغريبٍ يتكلم لغته
بطريقة خاطئة. وحدهم أبناء اللغة، لا يضحكون من بعضهم حين
يتبادلون أطراف الحديث. طلبتْ منّي في النهاية أن أتوقّف عن

..ر د النكات، لأنّ ألماً أصاب عضلة بطنها إثر الضحك، فامتثلتُ ، افةً بحالها. دخلنا إلى الصالة، من بعد ذلك، كي نشاهد الفيلم الذي نصحتني به البائعة. ابتسمتْ وهي تقرأ العنوان على الشاشة: «سريرٌ دافئ»، فغمزتها ساكباً لها قدحاً من النبيذ الأحمر. أردفته الثاني، والثالث، حتى شعرتُ بأنّ الشيطان قد حضر مشكوراً، وأنّ الخطة تجري كما رسمتُ لها. شارف الفيلم على النهاية أخيراً، وراحت اللقطات الحميمية تنقش آثارها على وجه تونا، فارتمتْ بغنجٍ على كتفي، وأشارت بيدها نحو السرير: «إلى الأمام سرّ.» طبعتُ على فمها قُبلةً، تحت الحساب، ثم حملتها على ذراعَيّ، وسرتُ بها مثل جندي منتصر. وضعتها برفق على السرير، ففككت أزرار قميصها، ورحتُ أُسقط عنها قطع الثياب واحدة تلو الأخرى. التهمتُ شفتَيها، ثم هبطتُ أطبع القُبَل على عنقها وصدرها، منحدراً مع النهر حتى وادي اللهيب. ثار جسدها، فجذبتني من فروة رأسي، وأحاطتني بكلتا ساقَيها، لينقضي الليل وكل ما فينا متشابك. وفي الصباح استيقظتُ لأجد بأنّها قد رحلت، تاركةً لي قصاصة ورق صغيرة فوق الكومدينو، قرب السرير. كان مكتوباً عليها: «لم أفكّر يوماً بأنّي سأنام في فراشٍ شرقيّ، لكنّي أيقنت الآن بأنّ تلاقح الحضارات بالحب فكرة عظيمة.. شكراً سعيد.»

في أحد نهارات الخريف القصيرة، وصلني على البريد مظروف أبيض، كان مرسلاً من قبل دائرة التعليم في بلديّة أوسلو. فضضتُه، فوجدت فيه شهادة تقول بأنّي قد اجتزت امتحان المستوى العالي للغة، وصرتُ مؤهّلاً للعمل والدراسة. اللغة هي العتبة الأولى للتعارف على الأوطان البديلة والتآلف معها. لم أُخبر تونا بأمر الشهادة لكنّي ترجمتُ مقطعاً من «أنشودة المطر» للسيّاب، وحالما انتهيت منه، كتبته على ورق رسائل ملوّن وأرسلته إليها برفقة الشهادة:

«عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ.. أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر.. عيناكِ حين تبسمان تورق الكرومْ.. وترقص الأضواء كالأقمارِ في نهَرْ.. يرجّهُ المجذافُ وهْناً ساعةَ السحَرْ.. مطر.. مطر.. مطر..»

حفظتْ تونا القصيدة، وصارت تردّد كلما غسلَنا المطر: مطر.. مطر.. مطر.. كنا نلتقي كل مساء في مقهى الجنوب عند جادة تورغاتا، نشرب كأسَي بيرة ونتجاذب حديثاً لا ينتهي، ثم نستمع لموسيقى حيّة قبل أن نفترق على أرصفة المترو. أما ليالي السبت والآحاد

فنقضيها بتلاقح الحضارات في شقّتي. لقد فعلنا بالحضارات ما لم يفعله المغول ببغداد، وعشنا سعادةً تكفي لإعانة مليون فيل على الطيران. اقترحتْ عليّ، ما دمتُ قد اجتزتُ امتحان اللغة، أن أدرج اسمي لدى مكتب التشغيل الحكومي لعلّني أتحصّل على وظيفة. كان الكثير ممن أعرفهم قد حصلوا على عمل من خلال ذلك المكتب. ورغم توقي لدراسة الأدب إلا أنني آثرتُ الأخذ بنصيحتها لحاجتي إلى المال، ورحتُ مدرِجاً اسمي ضمن قائمة الباحثين عن وظيفة خدميّة. وبعد انتظار طويل، اتصلتْ بي، في شتاء ذلك العام، السيدة إيزابيل لونديمو، إحدى موظفات مكتب التشغيل، لتخبرني بأنّ مصلحة البريد النرويجي تنوي تنظيم دورة للسعاة، وأنّها ترغب في ترشيحي لذلك. وافقت على الفور، وفي ضحى الإثنين التالي، التقينا عند مكتب التشغيل.

كان يوماً كانونياً شديد البرودة، وكان الثلج يندف بغزارة دون انقطاع، لكنّها أصرّت، رغم ذلك، على السير مشياً نحو مكتب البريد، بحجّة قرب المسافة. كانت ترتدي معطفاً أصفر اللون، يغطّي ثلاثة أرباع قامتها، وتنتعل جزمةً مدعمة بالمسامير تحاشياً للانزلاق، وتسير بخطوات ثقيلة. أما أنا فمبلّلاً أسير خلفها مثل يتيم يبيع الكلنكس على أرصفة الشتاء، غير آبهٍ بمزيد من نُدف الثلج البيضاء. وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى مكتب البريد. كان بناءً شاهقاً مزروعاً وسط المدينة، وكان لفرط ارتفاعه وأناقة تصميمه يوحي إليك بأنّك مقبلٌ على فندق خمس نجوم.

«أنا بانتظاركم منذ العاشرة.» قال هنريك بنبرة فيها رائحة عتب.

«هذا ليس خطأي، سيّد هنريك، سَل مساعدتك، ربما أخطأت بالوقت.. موعدنا العاشرة والنصف.» أجابت السيّدة إيزابيل بانزعاج شديد.

«حسناً، حسناً.. أنا أعتذر سيّدتي، تفضلا بالجلوس.»

«لا بأس.»

«ماذا تشربان؟»

«قهوة.» قالت إيزابيل.

«وأنت؟»

«بيرة.» قلت محاولاً تلطيف الأجواء، لكنّ السيّدة إيزابيل شزرتني بعينها، فتداركتُ على الفور:

«قهوة.. قهوة لو سمحت.»

عرفت من تلك الجلسة بأنّ موظف قسم الفرز في مصلحة البريد النرويجي، هنريك فينستاد، هو من سيكون المشرف على التدريب، وأنّه الذكر الوحيد من بين عشرات النساء اللواتي يعمل برفقتهن. لقد بدا شخصاً مسالماً وحذراً في التعامل مع الجنس الآخر. همس لي بعد رحيل السيّدة إيزابيل لونديمو:

«لا تعجب لسطوة النساء ههنا يا سعيد، فأنت في بلد تشكّل الإناث فيه النسبة الأكبر من عدد السكان.»

«لكنْ، سيّد هنريك، ألا يُفترض بهذه النسبة أن تجعلنا مدلّلين، نحن الذكور؟» قلتُ متحاذقاً.

«لا، ليس صحيحاً، فنحن أقليّة يا عزيزي، والأقليّة مغلوب على أمرها في العادة.»

«يا لبؤس الأقليّات! لقد خلتُ بأنّ الأمر مختلف هنا.»

حكّ هنريك أرنبة أنفه بطرف سبّابته، وقال:

«ليس تماماً.. دعك من هذا الآن واتبعني كي نبدأ العمل.»

أيقنت، وأنا أتجوّل مع السيّد هنريك فينستاد في زوايا مكتب البريد، بأنّ سطوة النساء، لم يكن سببها الفارق العددي مع الذكور، بل لأنّهن، في هذه البلاد، يعملن بطاقة الذكور وصبر الإناث، والمرأة تغدو أقوى حين تفعل ذلك!

على أيّة حال، لم يبقَ أمامي سوى أن أحرص على اجتياز الاختبار من أجل الظفر بالوظيفة. كنت بحاجة إلى المال لأجل أمي، فقد تسلّلتْ نحو رحمها أذرع السرطان اللئيمة، وصار لزاماً عليّ التخلّي عن أحلامي، والعمل بأيّ وظيفة لإرسال أجور المشفى والعلاج. التزمت بالحضور إلى دورة التدريب، وأمسى المشرف عليها، هنريك فينستاد، صديقاً لي، رغم فارق العمر بيننا. كان طويلاً، بالغ النحول، يدعو منظره إلى الشفقة. لكنّه، رغم اجتيازه عتبة الستّين، ما زال يتمتع بمزيد من الحيوية

في العمل. لقد قضى شطراً من حياته معلّماً لمادة الرياضيات في مدرسة ابتدائية، ثم أنهى خدماته في سلك التعليم ليبحث عن وظيفة أخرى. إنّ تبديل الوظيفة أمر شائع في النرويج، ولا غرابة أن تسمع بطبيب ترك المهنة مثلاً، وذهب ليدرس القانون ويغدو محامياً، أو مدرّسة فيزياء تحوّلت إلى ممرضة بعد أن نالت شهادة جامعية في التمريض! اهتدى هنريك أخيراً إلى مصلحة البريد، وصار موظفاً في قسم الفرز.

كنّا ندخّن سويّة في أوقات الاستراحة، وكان هنريك يفضفض لي بين الحين والآخر. كان كثير الشكوى من زوجته، ورغم أنّي لا أحترم الرجال الذين يشكون زوجاتهم أمام الغرباء، إلا أنّي كنت حريصاً على الإصغاء إليه، فالإصغاء عتبة الاحترام وباب المحبة. لم أقترح عليه الحلول ولم أقدّم له النصائح، فمن أين لي ذلك؟! لكنّ إصغائي إليه كان يجعله سعيداً. اكتشفت فيما بعد بأنّ ليس ثمّة مشكلة بينه وبين زوجته. كل ما هنالك أنّ عطباً صغيراً في سلك الإصغاء قد حصل بينهما، ولو أنه حاول إصلاحه مبكراً لما احتاج لكل هذه الشكوى. إنّ عدم الإصغاء من شأنه أن يصيب الحب بالخمول، ويحوّل البيوت إلى ما يشبه الفنادق، فنزلاء الفنادق يعيشون تحت سقف واحد كذلك، لكنّهم لا يتشاركون الحياة الواحدة.

قدّم لي السيّد هنريك فينستاد، أخيراً، شهادة اجتياز دورة

التدريب، ممهورةً بتوقيعه وختم مصلحة البريد النرويجي. لقد اجتزت الاختبار بنجاح وصرت مؤهلاً لتوزيع البريد. اتصلت حينها بالسيّدة إيزابيل لونديمو في مكتب التشغيل، وأبلغتها بالأمر. أجابت بأنّ الحصول على الوظيفة أصبح بذلك وشيكاً، ولم يبقَ أمامي سوى الانتظار. في المساء اتصلتُ بأمي. طلبتُ منها أن تصلّي لأجلي كي أحصل على الوظيفة. أمي كثيرة الصلاة لأجلي، لكنّها لا تلتزم بما أطلب منها أن تدعيَ به. فيما مضى رجوتها أن تدعو لي بالحصول على اللجوء، فراحت تهمس في صلاتها: «إلهي وأنتَ جاهي.. وفّق سعيد وأرجعه سالماً.» كنت أقول لها: «يا أم سعيد، يا أمي، هذا خطأ، هذه الدعوة تعيدني إلى العراق.. ادعي لي باللجوء لا بالطرْد، أرجوكِ.» فتردّ عليّ ببرود وثقة تامتين: «لا عليك، هو يعدّلها من عنده.. ماذا تفهم أنت من شغل الله؟!»

هذه المرّة، أكّدتُ عليها، رغم مرضها ومزاجها الذي بات سيئاً، أن تحدّد المطلوب؛ وظيفة في مكتب البريد، لا غير، فأوعدتني بأنّها ستفعل. وفي أحد الأيّام، وإذ كنت جالساً على الكنبة أقرأ الصحيفة، اتصلت بي السيّدة إيزابيل لونديمو، لتخبرني بأنه قد تم اختياري لوظيفة في مكتب بريد رودالوكا شماليّ أوسلو. شكرتها للمساعدة، واتصلت بأمي على الفور:

«أمي، باركي لي، حصلت على الوظيفة.»

«الحمد لله، الشكر لله.. مبارك عليك يا بني.»

«أم سعيد، أُقسم عليكِ بروح أبي ماذا قلتِ في الدعاء؟»

«قلت: إلهي وأنت جاهي، احفظ سعيد وأرجعه سالماً.»

أغلقتُ سماعة الهاتف، وسقطتُ على الأرض من الضحك. لقد بات واضحاً بأنّ الربّ الذي كانت تخاطبه أمي، يعرف بالضبط ماذا تريد منه أن يفعل! رويتُ لتونا الحكاية فضحكتْ من قلبها، ثم رسمتْ على صدرها علامة الصليب، وصلّتْ لها بالشفاء.

وفي اليوم التالي حملتُ أوراقي، وركبت الحافلة باتجاه مكتب البريد لاستلام الوظيفة.

ذات يوم أخبرتُ تونا بأنّي سأكون بانتظارها عند الثامنة مساءً في المقهى. وصلتُ قبل الموعد بساعتين. كنت مضطرباً، أُكثِر من النظر إلى الساعة، وأراقب الباب. دقّت الثامنة، فوصلتْ تونا. أزحتُ لها الكرسيّ، ووقفتُ أمامها بإجلالٍ كما يفعل النُدُل المهذّبون في مطاعم الخمس نجوم. ضحكتْ والتمعتْ عيناها الجميلتان، ثم تساءلت عما وراء تلك الحركة اللامعتادة! لم أجبها، انحنيتُ قابضاً كفّيَّ أمام صدري مثل بوذيّ يناجي ربّه، قائلاً: «هل أنتِ مستعدّة؟» فابتسمتْ ودفعتْ شفتَيها الجميلتَين إلى الأمام، مع نصف إغماضة في إشارة لعدم الفهم. أثنيتُ، عندئذٍ على ركبتَيّ وأخرجتُ من جيب سترتي خاتماً وقدّمته إليها قائلاً: «تونا، هل تقبلين الزواج مني؟» فقالت وقد خالطتْ ضحكتَها دمعةٌ سعيدة: «آه، الآن فهمت.. نعم أقبل.»

أتممنا، فيما بعد، أوراق الزواج، وطلبتْ تونا منّي أن يكون لقب عائلتها هو لقب عائلتنا الجديدة، فوافقتُ نزولاً عند رغبتها، وصرنا منذ تلك اللحظة نُلقَّب بالسيّد والسيّدة ينسين. لم تكن

الألقاب يوماً مهمّة عندي، ولا فرق لديّ بين مردان وينسين، ما دمتُ سعيداً. أبدلتُ في اليوم التالي إجازة السوق وجواز السفر والبطاقات البنكيّة، لتحمل على صدرها اسمي الجديد سعيد ينسين. ثم حدّدنا موعد الزفاف بعد سبعة أشهر، ريثما نشتري بيتاً مناسباً ونؤثثه سويّةً. كنا لا نفترق في النهار سوى ساعات العمل، وكنّا ثملَين من السعادة. ارتفع منسوب سعادتي مع الأيام ليصل حد الغرق، فقد شرعتُ، بعدما تمكّنتُ من ناصية اللغة وصرتُ أشهق مع الكلمات كما يفعل النرويجيّون، بكتابة القصص والحكايات الساخرة باللغة النرويجية. وكانت تونا تراجعها وتصحّحها لي قبل إرسالها للنشر في صحيفة داغ بوستن، مقابل مبالغ بسيطة أضيفها على ما أجنيه من عملي في البريد.

لقد عرفتُ مع تلك المرأة طعم الحياة حين تُخلَط بالبهجة، وأوشكت على نسيان كل الخيبات والخسارات والانكسارات، التي مرّتْ في شريط حياتي. لكنّ هاتفي المحمول، قاتله الله، رنّ في أحد النهارات ليُخمد طوفان السعادة ويُخفض منسوبها إلى ما دون الصفر اللعين. كانت تونا تتصل:

«مرحباً سعيد.»

رددتُ ممازحاً كالعادة:

«أهلاً بلعقة العسل.»

لكنّها لم تضحك، وقالت بهذا الصوت الذي يشبه صوت المزكوم:

«أين أنتَ؟»

«في المكتبة، ما بكِ تونا؟ صوتك غريب.»

«لا شيء، أنتظرك الآن في المقهى.»

«حسناً، ربع ساعة وأكون عندكِ.»

وبعد ربع ساعة بالتمام، دلفتُ إلى مقهى الجنوب. رأيت تونا تدير ظهرها إلى النافذة المطلّة على الشارع، محاولةً ألا تكشف من حزن عينَيها. كان جفناها ذابلَين، يحتضنان دمعاً من شأنه أن يُغرق وادي هامسدال لو انهمر، لكنّها تماسكت، وشرعتْ بالحديث. قالتْ وهي تقبض على كفّيها، وبدفعة واحدة: «أريدك أن تعرف يا سعيد بأنّك سقيتَ حياتي وجعلتها مورقة، وأنّها لولاك لظلّتْ يابسةً مثل شجرة تين ميّتة، ليس فيها سوى العمل والقراءة والروتين اليومي.. لكنّي، رغم ذلك، لا أستطيع أن أُكمل الطريق..»

فتحتُ فمي وعينَيّ مثل صبيّ تلقّى خبراً بموت أبوَيه في حادث سير. ثم حدّقتُ بها علّها تتراجع وتقول بأنّها تمزح، لكنّها أغمضتْ عينيها وهزّت رأسها في إشارة إلى أنّ الأمر حقيقيّ. رميتُ نحوها كرةً من علامات الاستفهام التي تزاحمت كالنحل في رأسي، فركلتْها مقاطعةً: «أرجوك، سعيد، لا تُصعب

الأمر عليّ، أنا أعرف ما تريد قوله، ولك الحق أن تعرف، ولكن
الأمر فوق طاقتي.. لا أستطيع، صدّقني.» ثم خلعت الخاتم
ودفعت به نحوي، وأطلقتْ سراح دمع محبوس. شعرت
حينها بأنّ خبرتي الطويلة في تلقّي الصدمات لن تسعفني هذه
المرّة، إذ راح قلبي يخفق بعنف واضطراب شديدين. لم تكن
تونا ينسين لحظة عابرةً يسهل نسيانها، أو رفيق سفر يترجّل في
أقرب محطّة ويتلاشى ظلّه، بل كانت عيني التي أرى بها الوجه
الرحيم لهذه الدنيا. نظرت إليها، كانت تبكي بحرقة، ودموعها
تنهمر على خديها بسخاء كمطر تشرين. تظاهرتُ بالتماسك
رحمةً بها، وعضضتُ على جرحي، وسكتّ. أمسكتُ بيديها
راجياً منحي تفسيراً أهشّ به ذباب القلق الذي راح يطنّ في
رأسي، لكنّها أفلتتْهما وضمّتْهما لتسند بهما رأسها الذي مال
حزناً. استنشقتُ نفساً طويلاً وزفرتُه، ثم تذكّرت كيف كنّا نختلق
المزحة أيامَ الصبا كي نخفّف الصدمات بالضحك، فقلتُ لها
مازحاً: «ومَن للحضارات بعدكِ يا تونا؟ مع من ألقّحها في ليالي
السبت الباردة؟» لكنّها لم تضحك، فعلمتُ بأنّ الحكاية قد
انتهت وأنّ لا رجعةَ في قرارها. تناولت خاتمي ومضيتُ مدارياً
دمعة قفزتْ من عيني.

فيما بعد أخبرتني السيّدة هيلينا يورستاد، رئيسة التحرير في جريدة
داغ بوستن، والتي تولّت مهمّة مراجعة قصصي بنفسها قبل النشر في
الجريدة، بأنّ تونا فعلت ذلك لأجلي.

«قلتِ لأجلي؟»

«نعم، فعلتْ ذلك لأجلك يا سعيد.»

«كيف ذلك؟»

«تونا مصابة بورم في الكلى، وفرصتها في الشفاء ضئيلة جداً.»

«ماذا تقولين بحق الجحيم، يا هيلينا؟»

«هذه هي الحقيقة صدّقني، لقد أخبرها الطبيب بذلك صباح ذاك اليوم.»

أخرجتُ هاتفي واتّصلت بتونا، لكنّ رقمها كان مغلقاً.

«ومن أين لكِ بهذه المعلومات؟»

«لقد أخبرتني بها سارة، المحرّرة في قسم الأخبار.»

«نعم، كانت سارة صديقةً مقرّبةً من تونا.»

أعدتُ الاتصال ثانيةً، بلا جدوى، فالرقم مغلق.

«أين هي الآن؟ لم أرها في المدينة منذ وقت طويل.»

«لقد تركت العمل في المدرسة، وغادرت المدينة.»

«إلى أين؟»

«عادت إلى بيت أمها في بيرغن.»

يا إلهي! لقد ظنّتْ تونا، لفرط حبّها لي، بأنّ بقاءها قربي وهي تحصي

ما بقي من أيّام عمرها سيفسد حياتي، فهدمتْ بمعول الظن ما كان بيننا، ورحلتْ!

ما زال رقمها مغلقاً!

ذهبتُ إلى قسم الأخبار مسرعاً، وطلبتُ من سارة أن تعطيني عنوانها في مدينة بيرغن، لكنّها رفضتْ، مطالبةً إيّاي باحترام رغبة صديقتها بألّا يعرف مكانها أحد. اتّصلتُ بمكتب البريد حينئذ، وأخبرتهم بأنني لا أستطيع الحضور إلى العمل بقيّةَ أيّام الأسبوع. عدت إلى البيت، حشوتُ حقيبة الكتف الصغيرة بقطعتَي ثياب، واتّجهتُ صباحَ اليوم التالي صوب محطّة القطار. قرّرت السفر إلى بيرغن للبحث عن تونا واستعادتها، فالحياة خُلقت لنتشاركها بكل تضادّاتها؛ السعادة والحزن، الصحة والمرض، الشبع والجوع.. فإن لم تكن كذلك لما استحقّت أن تُعاش.

آه! لو أنّ تونا أخبرتني بالأمر، لقاسمتها، وحقّ أبي، كليَتَيّ ومضينا سويّةً في قطار الحياة. لكنّها واحسرتاه لم تفعل، وترجّلتْ في أول محطة لتتركني وحيداً أصارع محنتي. وقفت عند ماكنة قطع التذاكر في محطة القطارات الرئيسة في أوسلو، أدخلتُ حروف مدينة بيرغن في خانة «إلى»، وأكملت باقي الخطوات حتى ظهرت على الشاشة علامة الدفع. أخرجت البطاقة البنكيّة من المحفظة، حشرتها في ماكنة الدفع، وضربتُ الرقم السريّ، فحصلت على تذكرة صغيرة؛ أوسلو ـ بيرغن. تناولتها ومضيتُ

باتجاه الرصيف رقم3. رنّ في الأثناء هاتفي. رئيسة التحرير، هيلينا يورستاد، على الخط:

«سيّدة هيلينا! تفضّلي.»

«آسفة لأجلك صديقي..»

«ما الخبر؟»

«لقد ماتت تونا.. الآن اتصلتْ أمّها وأبلغتْ سارة بالخبر.»

داهمني صداعٌ غريبٌ، أسقطني، لشدّته، أرضاً أمام ماكنة قطع التذاكر، وتم نقلي إلى المشفى. كانت تلك المرّة الأولى التي ألتقي بها الدكتور ستيفان هولمبيرغ، ولن تكون الأخيرة.

- 33 -

تضاعفت عزلتي، ومضى يتقاسم يومي عملان؛ عملٌ لا أطيقه، يوفّر لي دخلاً يسدّ حاجتي، وآخر أحبّه وأقضي معه وقتاً طويلاً بأجر زهيد، واحدٌ في النهار وآخر في الليل، البريد والكتابة هما كلّ ما أمارسه في حياتي الصقيعيّة هذه. كنت، وبعد أن أنهي توزيع الرسائل عند الساعة الرابعة عصراً، أعود إلى البيت منهكاً، أبدل ثيابي وأُسكت معدتي بما توفّر من طعام، ثم أخلد إلى ساعة نوم تنغصّها كوابيس حتميّة. أصحو

بعد ذلك، للاعتكاف في غرفة المكتبة لتأليف قصص وحكايات ساخرة، باتت تحتلّ زاويةً ثابتاً في الصفحة الأخيرة من جريدة داغ بوستن. أولتني هيلينا مع الأيّام معاملة خاصّة، وصارت تنتظر إلى ساعة متأخرة من الليل ريثما أبيضُ لها قصةً تُضحك قرّاء صحيفتها، فتقوم بمراجعتها بنفسها وإرسالها على الفور إلى موظّف المطبعة.

كانت وظيفتي إضحاك القرّاء ورفع مستوى الأدرينالين في دمائهم. ولكم شقّت عليّ هذه المهمة بعد أن فقدتُ مزاجي وأمسيت كئيباً بموت تونا. لقد اعتدت أن أُزيد من جرعة الكيتامين كلما استعصى عليّ الأمر، فتمتلئ المكتبة عندئذ بالرجال والنساء من ذوي البشرة الورديّة ويبدأون بالضحك. كنت أقف أمامهم كما يفعل الكوميديان على مسارح الليل الصغيرة، وأمضي بتلاوة نكات بيضاء وأخرى سوداء ستكون فيما بعد متوناً تنسدل تحتها سطور الحكاية. يضجّ المكان حينها بالضحك ويتعالى الهتاف والتصفيق، فيرتفع الإيقاع حتى آتيهم بالضربة القاضية في الخاتمة ليقهقهوا حد البكاء. وبينما ينشغلون بالتصفيق والضحك أنسلّ من أمامهم لأعود خلف الشاشة كي أدوّن ما حكيت، ثم أرسله إلى هيلينا مرفقاً بنكتة بذيئة. يتلاشى مفعول الكيتامين من بعد ذلك شيئاً فشيئاً، فيرحل المستمعون ويتركوني أتجرّع كأس وحدتي. وفي الصباح أقرأ الجريدة قبل النزول إلى العمل، وأقول في سرّي: يا له من رجلٍ سعيدٍ في حياته، كاتب هذه القصّة!

الدخان يغلّف الدهليز، والنار تلتهم ثوب الأم الراكضة من جهة المطبخ. لقد نسيتْ صنبور الغاز مفتوحاً ونامتْ، وعندما استيقظتْ على الرائحة، كانت الاسطوانة قد انفجرت. حاولتْ إخماد النار، لكن دون جدوى، فقد التهمت ألسنتُها نصف البيت، وكادت أن تحيله إلى رماد. قفز الجار الشهم إلى داخل النيران لانقاذها. أخرجها من بين ألسنة اللهب المتصاعدة، لكنّها أفلتت منه وعادت، إذ تذكرتْ بأنّي مازلتُ نائماً في الحجرة. حاول الرجل أن يمنعها من العودة إلى الداخل خشيةَ سقوط السقف عليها، ولم يفلح. رفست باب الحجرة برجلها ودخلتْ. كنت أصوّب الكاميرا نحو الباب من أجل توثيق اللحظة التي ستخرج فيها أمي حاملةً إيّاي بين ذراعيها. «أين قبري؟» همس أحدهم في أذني. التفتُّ نحوه، كان يخفي وجهه بخرقة سوداء. مددتُ يدي كي أزيل القماشة اللعينة عنه، لكنّ أمي خرجت من بين النار وهي تحملني، فسقط السقف علينا، وتلاشت صورة أبي من سقف الغرفة.

رميت الغطاء ونهضت من السرير. لبستُ ثيابي، وخرجت نحو
المتجر. ابتعت بطاقة اتصال دولي، وعلبة بُن، وسجائر. عدت
مسرعاً. صنعت فنجان قهوة. رفعت سمّاعة الهاتف. أدخلت رقم
البطاقة بعدما أزلت عنه الصبغة بإظفري، واتصلت بعبير. كانت قد
أعطتني في إحدى المرّات رقم هاتفها، وأكّدت عليّ بألا أتصل
بها إلا للضرورة. ما زال طلبُها المباغت مني بالعودة إلى العراق
يطنّ في رأسي، وما زالت لا تجيب على رسائلي! سوف أتصل،
وليحصل ما يحصل، حدّثت نفسي وأنا أضرب رقم الهاتف
ولحسن الحظ أنّها كانت لوحدها، ولم يُحرجها اتصالي. قالت بأن
الخدمة مقطوعة بسبب قذيفة طائشة أصابت برج الإنترنت، وأن
الشركة تقوم بإصلاحه منذ الواحدة ظهراً، ولربما تعود الخدمة
بعد ساعات. تحاشت الكلام عن رسالتها الأخيرة التي فعلت بي
ما يفعله صوت بندقية في كومة عصافير آمنة. تحدثتْ عن العمل
وآخر المشاريع، وعن المعرض الفوتوغرافي الذي ترتّبُ لإقامته
على ضفاف دجلة. قالت بأنّ بغداد قد تحوّلت إلى جنة، وأنّه لا
يمرّ عليها شهرٌ دون معرض فنيّ أو نشاط ثقافي كبير. ثم راحت
توصيني بعدم الإصغاء للإعلام المغرض، الذي يجاهد لتشويه
سمعة العراق وكأنّ له ثأراً بائتاً مع جلجامش، مردّدة: «العراق جنّة
يا سعيد.. صدّقني.»

«عبير.. دعيكِ من حديث الجنان هذا، وقولي ما الأمر الهام الذي
عليّ العودة من أجله؟» قلت مقاطعاً.

لم تجب. كانت تحاول الإفلات، لكنّي أصرّيت على أن أنهي الدقائق الأخيرة من عمر البطاقة في الاستماع لجواب محدّد:

«ما الأمر بالضبط يا عبير؟ بالله عليكِ أجيبي.»

فقالت بنبرة إشفاق لم أعتد عليها:

«لقد تم العثور على أبيك، وعليك العودة لاستلام رفاته.»

وانتهى عمر المكالمة.

- 35 -

بدا الليل أشدّ ظلمةً من المعتاد، وكآبةُ السماء مضاعفةً. كنت واقفاً في الشرفة، أشعل سيجارة من عقب أخرى، حتى اشتعلت رئتاي لفرط التدخين، وأمسيتُ أسعل بصوت يطرق أبواب الجيران. تكاثف دخان السجائر، من بعد ذلك، وراح يصنع غيمة بيضاء تغطّي سماء الحيّ السكني الذي أقطن فيه. ارتفعت الغيمة قليلاً وتشكّلت على هيئة شبح بعينين واسعتَين، ولحية طويلة تغطّي ثلثي وجهه وأعلى عنقه. لم تخبرني أمي بأنّ أبي كان ممن يطيلون لحاهم. أشعلت سيجارةً أخيرة لعلّ دخانها يُكمل وجه أبي، لكنّ كلب الجيران وقف تحت الشرفة، ليطلق نباحاً على دفعتين: «هُفّ.. هُفّ..» فانتبهتُ، وتلاشى أبي. كان الكلب يقول: «كفاك سهاداً يا

غبي.. نريد أن ننام.» عدت إلى الداخل، وأغلقتُ باب البالكو
اتجهتُ صوب غرفة النوم، لعلّي أحظى بغفوة قبل الذهاب إل
مكتب البريد، لكنّ تنبيهاً صدر من جهاز اللابتوب الذي نسي
إغلاقه. كانت عبير ترنّ لي من على برنامج المحادثة. قالت بأنّ م
حصل بالضبط هو أنّ الوكالة التي تعمل لصالحها كانت قد كلّفتها
قبل عدة أيام، بتغطية حدث يهمّني. فقد عُثر، من قبل فُرَق منظ
الصليب الأحمر العراقي، على مقبرة جماعية في ناحية الكفل
جنوبيّ بغداد. ويُرجّح بحسب الشهود أنّها تضم رفات أربعين
مُعارضاً يساريّاً، تم دفنهم سرّاً قبل سبعة وثلاثين عاماً، وأنّهم ينوون
فتحها الأسبوع المقبل.

«هل سمعتَ كم يبلغ عمر المقبرة؟ السلطات تعتقد بأنّها تخص
ناصر مردان ورفاقه.. عليك أن تعود فوراً.. سعيد، هل تسمعني؟»
كانت عبير تردّد، لكنّي لم أجبها. امتلأت عيناي بالدموع، حالما
سمعتُ الخبر، ولم أعد أرى الشاشة أمامي. أغلقت اللابتوب
ورميته جانباً. غيّرت ثيابي، وخرجت في تلك الساعة المتأخرة
من الليل. وصلت إلى مكتب البريد قبل ثلاث ساعات من الدوام
الرسمي. كان البريد مغلقاً، فالورديّة المسائية أكملت عملها
وخرجت. أطفأت محرّك السيّارة حينذاك، وأعدت الكرسيّ إلى
الخلف، ثم مددت ساقَيّ فوق المقود، وأنزلت القبعة على عينَيّ،
وبقيت أنتظر.

ما عاد دانيال ساعيَ بريدٍ بعد تلك الحادثة. لقد أُصيب عموده الفقريّ وأمسى عاطلاً عن العمل. رأيته في أحد الأيّام يدلف إلى مركز للتسوّق على كرسيّ متحرّك. اقتربت لأسلّم عليه، لكنّه لم يعرفني، أو تظاهر بذلك.

«دانيال، أنا سعيد، هل نسيتني؟»

«وهل أعرفك كي أنساك يا... ماذا كان اسمك؟»

«سائيد، زميلك في مكتب البريد.»

«سائيـــد! هل هذا اسم إنسان، أم صرير باب؟ اغرب عن وجهي أيها الأحمق.»

غريباً بدا لي دانيال آلغن بوفارسون، عدوانيّاً على غير طبعه. تركته وانصرفت، معلّلاً الأمر بأنّ الحوادث من شأنها أن تغيّر طباع البشر، هذا الكائن الضعيف كذباب منزوع الجناحين. لكنّه نادى خلفي:

«لحظة، توقّف لو سمحت.»

«ماذا هنالك؟»

«هل رأيتَ ضفدعاً بخمسة أرجل؟»

«كلا.»

«ولا أنا.»

قالها وأطلق ضحكة عالية من تلك التي أعرفها، فاتحاً لي ذراعَيه. احتضنته، ثم أثنيتُ على ركبتَيّ ورحنا نستذكر تلك الأيام، التي كنّا نوزّع فيها البريد معاً. ذكّرته ببعض منها، فزمّ شفتَيه وأغمض عينيه، محتضناً جبهته بكفّ يده. شعرت بأنّ الحزن ينهش قلبه، وأنّه يحاول أن يداري دمع عينَيه الذي أوشك أن يفيض. مسحت على كتفيه مذكّراً إيّاه بما قاله لي ذات مرة بأنّ الحياة فيلم قصير، وأنّ على المرء، حين تقع فوق رأسه مصيبةٌ ما، أن يردّد في سرّه: «فيلم قصير.. فيلم قصير.. فيلم قصير..» كي تذوبَ تلك المصيبة كالثلج تحت الشمس، وتتلاشى. ربّتْ على يدي قائلاً: «وهو كذلك.» ثم دعاني على حسابه لتناول البيتزا في مطعم أنيق مجاور. جلسنا ندردش ونضحك طويلاً، ثم ودّعته وانصرفت. في اليوم التالي رأيت مديرتي، كاري سولبيرغ في الطريق، فتعكّر مزاجي وشعرت بالغثيان. كان لها قدرة خارقة على تعكير المزاج ورفع مستوى الاكتئاب لدى البشر. فعملتُ بوصيّة دانيال وهتفت في سرّي: «فيلم قصير.. فيلم قصير.. فيلم قصير..» لكنّها لم تذبْ كالثلج ولم تتلاشَ.

بدأ الموظفون بالتوافد. كنت أراقب المبنى من خلف جفنَين شبه مطبقين. وصلتْ كاري سولبيرغ، أخيراً. كانت ترتدي سترة صيفية رماديّة اللون، وتضع على طرف أنفها نظّارة طبيّة، تنظر من فوق إطارها العلويّ. رأتني نائماً داخل السيّارة، واضعاً كلتا قدمَي فوق المقود. هزّت رأسها بحركة تذمّر مقصودة، ومضتْ. انتظرتُها حتى دخلت المبنى. أنزلت قدميّ وأعدت الكرسيّ إلى الأمام، ثم عدّلت ثيابي وذهبت خلفها. طرقت الباب. لم تجب. كانت في الداخل، أعلم ذلك، لكنّها لا تريد أن تراني. اقتحمتُ عليها المكتب، فانفجرتْ غاضبة:

«أنا لم أعطكَ الإذن بالدخول.»

«طُز.»

«تكلّمْ بالنرويجيّة لو أردت. ثم لماذا لا ترتدي سترة العمل؟ وهل أخبرك أحدهم بأنّ سيّارة البريد مخصّصة للنوم بدل العمل؟»

لم أكترث لهرائها. وضعتُ أمامها استقالتي، وهممت بالخروج.

زعقتْ: «انتظر، دعني أرى.» تناولت الاستقالة وبدأتْ تقرأ بصوت منخفض، فتبدّل انزعاجها إلى بهجة. أمسكتْ بالقلم وهي تدارِي ابتسامتها، وأمضت بالموافقة، ثم أخبرتني بأنّها ستوعز إلى قسم الحسابات من أجل استكمال الأمر. غادرتُ المكتب دون أن ألقي التحية عليها. أغلقتُ الباب خلفي بقوة، شعرت معها بأن جناب المديرة قد قفزتْ من مكانها وانضرب رأسها بالسقف ذهبتُ في الممرّ بين الغرف حتى النهاية، ثم انعطفتُ نحو غرفة شؤون الموظفين. سلّمتهم كيساً فيه ثياب العمل، ومفتاح السيّارة، وبعض الأوراق المهمة التي كانت بعهدتي، وغادرت مكتب البريد إلى غير رجعة. أخذت الحافلة 31 المتّجهة صوب مركز المدينة. كان المطر يتساقط من خلف الزجاج، والناس يحملون المظلّات ويمارسون فن الحياة بفرشاة الهدوء. لقد بدت أوسلو غريبة عنّي ذلك اليوم رغم أنّي أحفظها عن ظهر قلب، وأستطيع السير فيها مُغمضاً. توقّفت الحافلة أخيراً. ترجّلتُ وعبرت الطريق مسرعاً نحو حانوت صغير. ابتعتُ مظلّة، ثم انعطفت نحو جادة ستينير. دخلتُ إلى مركز تسوّق أوسلو سيتي. اشتريتُ حقيبة سفر وبعض الثياب، وعرّجت على متجر لبيع أدوات التصوير في الطابق الثالث. ابتعت شاحناً للكاميرا وشريحة ذاكرة، وعدت إلى موقف الحافلات.

لم يترك لي العمل في البريد المزيدَ من الوقت لممارسة هوايتي في التصوير، لكنّي ما زلتُ أحتفظ بكمية لا بأس بها من الصور.

كانت قد التقطتُ بعضها لتونا التي رحلتْ قبل أوانها وجعلتْ حياتي موحشة مثل قبر منسيّ، ولزميلي دانيال آلغن بوفارسون، ولقطّة جاري، مرسيدس ذات الشعر الأبيض الطويل، ولمن أحببته في هذه البلاد الباردة.

عدتُ إلى الدار. تناولتُ جهاز اللابتوب، ورحت أبحث عن رحلة طيران قريبة إلى بغداد. لم أجد واحدة أقرب من عشرة أيام على أقل تقدير. هذا يعني بأنّي لن ألحق على فتح المقبرة. بحثت عن الرحلات المتّجهة نحو عمّان، فكانت الأسعار ترتفع كلما اقترب الموعد. اضطررت، في النهاية، إلى حجز تذكرة غالية الثمن، لكنّها بتاريخ الغد. أحضرت الحقيبة، حشوتها بالثياب والكاميرا وبعض الأوراق، ثم أنزلت البرواز الخشبي من حائط المكتبة، ودسسته فيها. أخيراً سيحتضن صورة أبي. أغلقت الحقيبة وركنتها عند الباب، ثم وضعت فوقها جواز السفر ومحفظة الجيب. ذهبت إلى المطبخ، أخرجت من الثلاجة قطعتَي توست، سخّنتهما ووضعت بينهما شريحة جبن بقريّ أصفر، وبدأت بقضم الشطيرة واقفاً. صنعت من بعد ذلك فنجان قهوة، وعدت للجلوس أمام اللابتوب. فتحت برنامج المحادثة، ياهو ماسنجر، بحثاً عن عبير. وجدت سيلاً من كلمات العتب والخشية والخوف والقلق، التي تركتها الفتاة لي. كانت تخشى أن يكون قد حصل لي ما لا تتمنّاه بعدما أخبرتني بأمر المقبرة الجماعية.

كنت على يقين بأنّ أبي قد فارق الحياة، وتحوّل بجرّة قلم إلى طيف ذكرى، لكنّي لم أضع يوماً في الحسبان بأن توجَّه لي دعوة لاستلام رفاته من مقبرة جماعية! كتبت لها اعتذاراً لأنّي ذهبت البارحةَ دون أن أجيبها، ثم هممت بالإغلاق، لكنّ عبير دخلت في الأثناء. رشقتني بكلمات عتب إضافيّة لما زرعتُه في صدرها من قلق غير مبرّر. القلق من سمات العاشقين. ويبدو أنّ هذه الفتاة عاشقة رغم بعد المسافات.. قاتل الله المسافات. أرسلتُ لها دعوة كاميرا كي تطمئن. قبلَتْها، وطلّت من على الشاشة كالملاك، لكنّ الصوت، واحسرتاه، كان متقطعاً. كتبتُ لها عندئذٍ:

«صوتكِ يتقطع، عبير، اطمئني أنا بخير، وأعتذر عن سوء تصرّفي البارحة، فالخبر كان ثقيلاً.»

«لا عليك حبيبي، المهم، ماذا نويت أن تفعل؟»

انقطع التيار الكهربائي، وبدأ جهاز الحماية لديها بالصفير.

«يا الله! انطفأت الكهرباء، سعيد، أجبني باختصار أرجوك قبل أن يتوقف جهاز الحماية وينطفئ الكومبيوتر؛ ماذا نويت أن تفعل؟»

«سأعود غداً.»

قرأتْها، واختفتْ من الشاشة.

لم يكترث للإشارة الحمراء في نهاية الطريق، اجتازها بقلب بارد، واستمرّ يقود مسرعاً! سمعتُ صوت سيّارة الشرطة في إثرنا. لا بدّ أنّ أحدهم قد اتصل، وأبلغ عن المخالفة. كنت جالساً في الوراء. طلبتُ منه أن يخفّف السرعة، إذ ما زال الوقت مبكّراً على موعد الرحلة. لم يستجب. انعطف يميناً دون أن يضغط، ولو قليلاً، على الفرامل. صار يقود بسرعة جنونيّة. أمسكتُ بطرف قميصه وهززته، لكنّه لم يلتفت. نظرت إليه من خلال المرآة الأماميّة؛ كان لحم وجهه قد بدأ بالذوبان. إنّه أبي! صرخت بأعلى صوتي مطالباً إيّاه أن يستدير كي أتعرّف على شكله قبل أن يتلاشى، فترك المقود، والتفت نحوي لأراه، لكنّ السيّارة انقلبتْ، وتلاشى أبي.

انتبهتُ، كانت الإشارة قد تبدّلت إلى خضراء، والسيّارة تنعطف بهدوء، نحو بوّابة مطار أوسلو الدولي. ناولتُ السائق ثمن الأجرة، وأنزلتُ حقيبتي، ومضيت.

ـ 39 ـ

«النداء الأخير لطائرة الخطوط التركية، الرحلة: ثلاثمائة وتسعة عشر، والمتوجّهة إلى عَمّان عن طريق إسطنبول.. يُرجى من حضرات السيّدات والسادة الركّاب التوجّه إلى الطائرة من خلال البوّابة رقم دي23» نادتْ موظفة الخطوط ثلاثاً عبر مكبّرات الصوت.

أنهيتُ فنجان القهوة، وأعدت جهاز اللابتوب إلى حقيبة الظهر، ثم اتّجهت صوب البوّابة دي23. حشرت التذكرة في جواز السفر، واصطففت في الطابور. كانت الموظفة تتصنّع ابتسامة وهي تؤشّر التذاكر وتعيدها إلينا. عيّنت مكاني داخل الطائرة. أخرجت هاتفي النقّال وأطفأته، ثم أعدته إلى حقيبة الظهر. أودعت الحقيبة في الخانة العلوية، وجلست أراقب المضيّفة الجميلة وهي تشرح تعليمات السلامة بلغة الإشارة. أقلعت الطائرة أخيراً واستقرّت في كبد السماء. نظرت من النافذة مودّعاً النرويج، كانت خيوط الشمس تسقط برفقٍ على قمم الجبال المكسوّة بالخضرة والمحاطة بالخلجان الزرقاء، فتبدو وكأنها بطاقة بريديّة مدهشة.. وداعاً بلاد الماء والجبال.

«مرحباً.» قلتُ.

«هلا.» ردّ بتكلّف.

كان عبوساً كأنّه تيسٌ جبليّ، لكنْ سرعان ما تبدّلتْ ملامحه، وابتسم حين وضعت أمامه الجواز الأحمر بالنقش الملكي. دَمَغَه، على الفور، بختم الدخول، وقال مُرحّباً هذه المرّة:

«تفضّل يا سيدي، على راسي.»

«شكراً لك.»

جوازات السفر الحمراء ذات الشعارات الملكيّة، تقوم بما عجزت عنه جامعة الدول العربيّة من يوم تأسيسها حتى الساعة. هذا النوع من الجوازات يجعل منك، أنت المسافر العربي، محترماً في مطارات العرب، ويُسقط عنك، في الوقت ذاته، كل الاعتبارات الإثنيّة التي فرّقتك عن بني لغتك ذات يوم! ورغم كل الشعارات القوميّة الرنّانة التي لُقّنتَ بها صغيراً في دروس التربية الوطنية، والتي ستلاقيك، حين تكبر، مكتوبةً بخط عريض

فوق لافتات الحدود، يبقى الجواز الأحمر طريقك الوحيد إلى
قلب الأخوّة النابض بالاحترام والتقدير.. تذكّر هذا جيّداً وقل
يا للنكسة!

حملت حقيبتي واستقلّيت سيّارة أجرة، كانت تقف بالقرب
من بوّابة المطار. كنت متلهّفاً لرؤية صديقي سلام، وتذوّق
الفلافل من يديه. قلت للسائق الذي كان يستمع لخطبة وعظ عبر
المذياع:

«إلى وسط البلد، لو سمحت.»

فردّ بخشوع غير مبرَّر:

«إن شاء الله تعالى.»

وصلنا إلى وسط البلد وقد حوّل صوت المذياع رأسي
إلى طبل. دفعت الأجرة إلى السائق الداعية، ثم أنزلت الحقيبة
وقطعت الطريق الرئيس. انعطفت نحو الجادة الثالثة من جهة
اليمين بعد ذلك، واستمرّيت بالمشي قاصداً مطعم سلام العراقي،
لكنّي لم أجده. ظننت للوهلة الأولى بأنّي قد ضللت الطريق، وأنّ
عليّ أن أعود من حيث أوصلني سائق التاكسي، لكنّ أحد المارّة
أجابني، وهو يشير بيده إلى مكتب للصيرفة: «هنا كان مطعم
سلام العراقي.»

سألت الشاب الجالس خلف المكتب، وكان عراقيّاً:

«لو سمحت، أين أجد سلام؟»

«تقصد سلام العراقي؟»

«نعم، بالضبط.»

«والله، سلام هاجر من زمان.»

«إلى أين؟»

«استراليا، باع المطعم وهاجر إلى هناك.. تفضّل استرحْ.»

«لا، شكراً لك.»

هاجرَ سلام إذن! ذهب إلى أستراليا بحثاً عن راحةٍ «مكتملة الدسم». لا أظنّك ستجدها يا صاحبي، فالأوطان البديلة لا تمنحنا الراحة الكاملة ما دمنا قد قضينا ثلث حياتنا هناك، حيث الأزقّة الضيّقة، والبيوت المتراصّة، ورائحة الخبز الآتية من تنانير الطين. هذا النوع من الأوطان مهما كان رؤوماً بنا ومسالماً، يظلّ المرء منّا يحنّ إلى أول زقاق داعب فيه الكرة مع رفاقه. أتذكر بأنّي كنتُ قد ربحت، ذات مرة، مسابقة كرة القدم للحفاة، ومُنح فريقي كأساً وميداليات. كان الكأس حينذاك مصنوعاً من الكارتون المقوّى، والميدالية من غطاء زجاجة بيبسي ثُقب وعُلّق بخيطٍ قطني. لا أدري أين حلّ الدهر بالكأس الغالية، لكنّي مازلت محتفظاً بتلك الميدالية وأصنّفها كأغلى جائزة حصلتُ عليها في حياتي.

ودّعت الصرّافَ، ودخلت مطعماً صغيراً بالقرب منه.

مشتاقاً إلى الفلافل. لم أذقها مُذ غادرت عمّان قبل سنين طوال.
دفعت الحساب وحملت حقيبتي بعد ذلك نحو فندق شعبي.
النوع من الفنادق يوفر لي رؤية الازدحامات من الشرفة.
ينتصب في قلب المدينة، لا شك بأنّ المحيط ينبض بالمارّة.
حُرمت من رؤية منظر الطرقات المزدحمة بالمارّة. في النرويج
لم أرَ طريقاً يزدحم بالناس. بضعة ملايين متناثرة على طول البلاد
وعرضها. بينما يعيش على متن عمّان لوحدها ثلاثة ملايين مواطن
برفقة ثلاثة ملايين مقيم، في بحبوحة لا تتجاوز الألف وسبعمائة
كيلومتر مربّع!

نمت على صوت الناس تلك الليلة. وفي الصباح ذهبت إلى مكتب للسياحة والسفر. قطعت تذكرة إلى بغداد. قال الموظف في المكتب بأنّ الرحلات تنطلق إلى بغداد فجراً، وأنّ لديهم نوعين منها؛ الأول في حافلة كبيرة مكيّفة، والثاني في جيمسي، ثمانية ركّاب، مكيّفة أيضاً. حجزت المقعدين الأماميين في الجيمسي من أجل راحة أكبر في الجلوس. قضيت النهار في التسكّع بين المحال والمقاهي، وعدت إلى الفندق. هيّأت حقيبة السفر التي كانت شبه جاهزة. تأمّلت برواز أبي. «لقد صُنعتْ البراويز لصور الآدميين، وليس لأكوام العظام، يا غبي.» همس البرواز لي، فدسسته في الحقيبة، وأغلقت عليه. وفي الرابعة صباحاً كنت مزروعاً في الكراج أمام مكتب السفر.

راح نهار السابع من تموز ينتصف. الشمس تُذيب الإسفلت، والطريق الدولي موحش وشبه مهجور. لم أرَ على مدى ساعات طويلة سوى بضعة سيارات لعوائل مغادرة باتجاه الأردن. سألتُ وائل، سائق الجيمسي المهذار، عن السرّ وراء ترك هؤلاء الناس للبلد والنزوح نحو الأردن، فقال: «علمها عند ربّي.» ثم عاد يثرثر في السياسة والاقتصاد والرياضة وأسعار السيّارات.

لم أستطع أن أفهم؛ كيف تكون الهجرة خياراً سهلاً إلى هذا الحد؟! لقد مرّ عامان كاملان والعراق بلا حرب، ألم يكن هذا كافياً للبقاء؟! تمنّيت لو عدنا خلفهم كي أدلق ما يجول في خاطري وأعرف أسباب رحيلهم. لا شك بأنّ لديهم تفسيراً آخر لا يعرفه من عاش خلف الحدود مثلي، فمن يده في الماء ليس كمن يده في النار، كما كانت تردّد أمي.

رمى السائق عقب السيجارة وأغلق النافذة، ليعيد تشغيل مكيّف الهواء من جديد. كان سائقاً ثرثاراً؛ لم ينقطع عن الكلام منذ أن أدار المحرّك. فرّق علينا، في البدء، كروتاً تحمل اسمه ورقم هاتفه،

وهو يردّد مازحاً: «وائل جيمسي.. اطلبوني، تجدوني.» وأسه
في الحديث عن حياته، دون مبرّر. قال بأنّه تخرّج من كلية الهند...
في جامعة بغداد، ولم يحصل على وظيفة، فقرّر أن يعمل سا...
على خط عمّان. لكنه لم يكن يملك المال الكافي لفعل ذلك، ...
اضطرّه للجوء إلى عمّه الميسور لأجل شراء السيّارة الجيمسي،
ومناصفة الوارد معه.

«عمّي، ينام على سرير أخضر.» قال.

«سرير أخضر! ماذا تعني؟!» قلتُ باستغراب، فأجاب:

«أعني سريراً من الدولارات.»

«آها.. وهل أنت مرتاح في العمل على الجيمسي؟»

«الحمد لله، أستاذ.»

«وائل.. بالله عليك لا تنادني أستاذ.»

«أوكي، أستاذ.» ردّ ممازحاً، فضحكنا.

انتقل من الحديث عن عمّه إلى الحديث عن السياسة وأمريكا والأحزاب، ثم عرّج، لا أدري كيف، على كرة القدم ونادي الجويّة الذي قال بأنّه يجري كالدم في عروقه! أخرج من بعد ذلك حزمة أعواد بخور هنديّ، ثبّت واحدةً منها أمام فتحة التكييف، فغدا يبعث هواءً زاكياً، يداعب النفس، ويُثقل الأجفان. رفع السائق الشاب صوت المذياع، وراح يدندن مع جورج وسّوف: «الهوا سلطان الهوا

سلطان.. يا عاشقين الهوا سلطان». رجوتُه أن يخفض الصوت، وهبطتُ في المقعد محاولاً الظفر بغفوة قصيرة، لكنّ عطلاً أصاب محرّك السيّارة، وأسكته عن الدوران. لا أدري كيف تعطّلت هذه الجيمسي الحديثة فجأة! ضرب وائل بيده على المقود، وراح يلعن الساعة التي عمل فيها سائقاً، ثم ترجّل بعد شريط اللعائن، وفتح غطاء المحرّك ليرى أين تكمن المشكلة. صرخ بعدما كشف على المركبة:

«يا بِنْت الكلب!»

«ما الأمر، وائل؟»

«مصيبة يا أستاذ، ليس فيها قطرة بنزين واحدة!»

«أين ذهب البنزين إذن؟ ألم تملأها قبل السفر؟»

«كلا، فالعدّاد كان يشير بأنّها ممتلئة، لكنّه يبدو عاطلاً.»

لقد توقفت الجيمسي بسبب نفاد الوقود، وليس ثمة محطة تعبئة قريبة. حاول وائل الاتصال بالمكتب من هاتفه النقّال، لكنْ لم تكن هنالك تغطية.

«والآن، ما الحل؟» سأل أحد الركّاب.

«لا أدري.» أجاب وائل.

«من الذي يدري إذن؟ أمي؟»

تشاجر الرجلان، وكادا أن يضربا بعضهما البعض، لولا أن ...
بينهما. دم العراقيين سريع الغليان، ولا سيما في الصيف.

جلست على جانب الطريق. أخرجت علبة السجائر، وأشعـ
واحدة، قدّمتها للسائق قليل الحيلة، ثم أشعلت أخرى لنتشار
نفث الدخان في الهواء. يا ترى كيف سنخرج من هذا المأزق؟!
بغداد ما زالت بعيدة، بيننا وبينها صحراء تمتد حتى نهاية الأفق،
بينما محطات الوقود التي تتوزع على الطرق السريعة عادةً، فكانـ
أقرب واحدة منهن تبعد عنّا عشرين ميلاً! يا إلهي، ما هذا النحس؟!
بدأ الركّاب بالتذمّر، والدخول في مشاجرات عبثيّة مع السائق. كرّ
وائل الاتصال مرّة ثانية وثالثة وعاشرة، لكن دون جدوى؛ لا توجد
تغطية. دامت محنتنا ساعتين، جلدتنا فيهما سياط الشمس اللاهبة،
وجعلتنا نغتسل بالعرق. كنّا ننتظر أن تمرّ ولو سيّارة واحدة لتمنحنا
ألتاراً قليلة من البنزين تكفينا للوصول إلى أقرب محطة وقود،
لكن دون جدوى. لاحَ في النهاية رتل مركبات من بعيد. كانت
مدرّعات ومزنجرات عسكرية تقترب، يرفرف فوقها علم أمريكا
بنجومه الخمسين، وعلى كل عربة منها ثُبّتتْ يافطة حديدية بيضاء،
تحمل تحذيراً من الاقتراب، مكتوباً باللغتين؛ الإنكليزيّة والعربية.
مددنا أيدينا طلباً للنجدة. توقفت عربة هامفي، وترجّل منها جنود
متأهّبون للضغط على الزناد. طلبوا منّا التنحّي جانباً، ورفع اليدين

إلى الأعلى مثل أسرى حرب. كانوا خائفين وحذرين، وكأننا نحن القتلة، وهم الضحايا! فتّشونا بدقّة، ومرّوا بأيديهم على كل خبايا أجسادنا، حتى ظننا بأنّ ما يجري هو عملية فحصٍ للبواسير وليس تفتيشاً عابراً. استفسروا بعدما اطمئنّوا بأننا لا نحمل ثمّة أسلحة، عن سبب توقّفنا، فشرحنا لهم المشكلة. عند ذاك أخرج أحدهم من مؤخرة الهامفي غالون بنزين، عليه ملصق يحمل صورة غول أزرق، قال أفرغوه في الخزّان وارحلوا قبل حلول الظلام. لم أرَ في حياتي غالوناً بهذا الشكل، ولم أسمع بوقود سيّارات يحمل هكذا علامة. على كل حال، أفرغها السائق في خزّان الوقود، وعاد المحرّك للدوران.

انطلقت الجيمسي مغرّدةً نحو بغداد من جديد، لكنها لم تكن نظاميّةً هذه المرة؛ كانت تسير بسرعة صاروخ أعمى. طلبت من وائل أن يخفف السرعة. لم يستطع. لقد أقسم بشرف أمه بأنّه لا يقدر على ذلك، وأنّه فقد السيطرة على الفرامل. كان يمسك بالمقود جيداً محاولاً ترويضها بلا جدوى. انفلت عيارها، وبدأت صورة الطريق بالتلاشي. أفلت وائل من بعد ذلك زمام التحكم بالمركبة تماماً، وانشغل بالصراخ كالنساء. الآخرون شرعوا بالصراخ أيضاً، أما أنا فغرابة المشهد أغلقت فمي بمزلاج الذهول، وجعلتني صامتاً مثل حجر في الطريق. كنت مفزوعاً لما يجري، وخائفاً من أنّ نهايتي ستكون على أعتاب بغداد قبل أن أراها. يا إلهي، هل قطعتُ كل هذه المسافة من أجل الموت في حادث سير غريب؟! استمرّت الجيمسي في جنونها حتى شعرت بأنّها ستنفجر

ويتناثر لحمنا في الهواء، لكنّها هدأت أخيراً واستقرّتْ. فتحتُ ء مي
حينئذ، فرأيت لافتة كبيرة، مكتوب عليها:

«بغداد ترحب بكم».

- 42 -

أشجار مشذّبة ومتساوية الأطوال مثل حرس ملكيّ، تصطف
على كتفَي طريق طويلة ومعبّدة تفضي إلى بوّابة عالية مبنيّة بالآجر
والمرمر. الجسور معلّقة وشاهقة كأنها مراجيح سماويّة، والمراسي
تختنق بالزوارقُ البيضاء. أطللت برأسي من النافذة، فشممت رائحة
بغداد، وانتشيت. كانت رائحتها مثيرة للنشوة مثل نبيذ عُتّق لمائتي
عام وأكثر. اخترقت أذنَيّ موسيقى مقام الصبا وجعلتني جذِلاً
مثل عاشق شمّ عنق حبيبته. تذكرت حينها قول عبير بأنّ بغداد قد
أضحتْ جنّة، ولكم شعرت بالندم لأنّي لم أصدّق كلامها يومذاك.
كان الشك يراودني، إذ ليس ثمة عاقل يصدّق بأنّ مدينةً تسقط على
رأسها آلاف الأطنان من القنابل، وما زالت واقفة على قدمَيها حتى
الساعة! فما بالك حين يراد منك أن تصدّق بأنّها تحوّلت إلى جنّة؟!
ما الذي يجري بحق الله يا بغداد؟ قلتُ في سرّي، لكنّ السائق
قطع دهشتي قائلاً: «الحمد لله على السلامة يا شباب.» معلناً عن
وصولنا إلى كراج العلاوي. كان مرأباً واسعاً وأنيقاً، تصطفّ على

ـانبيه حافلات حديثة، تتجه نحو باقي المدن العراقية. ولدى الباب ـنصب جهاز صغير فيه زر أخضر، مكتوب تحته: «اطلبْ تاكسي.» ـبست على الزر، فظهرت على الشاشة عبارة تقول: «شكراً لك، ـيتم تلبية طلبك فوراً.» وبعد ثلاث دقائق وصلت مرسيدس ـوداء، تحمل علامة التاكسي المضيئة في الأعلى، ترجّل منها شاب يرتدي بنطالاً أسود وقميصاً أبيض، مطرّزاً بشعار الشركة التي يعمل لصالحها. حمل حقيبتي، وضعها في الصندوق، وقال تفضّل. فتحت الباب الأمامي وجلست قربه. سألني بنبرة مهذّبة:

«عفواً أستاذ، إلى أين تأمر؟»

«بغداد الجديدة من فضلك.»

«أي مكان في بغداد الجديدة بالتحديد؟»

«خلف حيّ السريان، قرب دكان حمزة العطّار.»

شعرت بأنّه امتعض لجوابي، فقال:

«أستاذ، لو سمحت، اعطني عنواناً تفصيلياً كي أضعه على الجي بي أس.»

«للأسف يا عزيزي، ليس لديّ تفاصيل كثيرة، فقد تركت العراق منذ سنوات طويلة، ولا أتذكّر سوى أنّ بيت خالي يقع هناك.»

«يعني؟»

«يعني دعها على الله، أنت أوصلني إلى بغداد الجديدة، وأنا أ..
أمري.»

«حسناً، على أمرك.»

كان عليّ أن أرى جلال هناك، فقد اشتقت إليه كثيراً. أدار السا..
المهذّب، حالما انطلقنا، مؤشر المذياع على إذاعة دار السلا..
بدأت نشرة أخبار محليّة، تقرأها مذيعة تجيد نطق الحروف بطر..
سليمة. أفاد الخبر الأول بأنّ أمانة العاصمة تعتزم توقيع عقد ..
شركة سكك حديد ألمانيّة لإنشاء مترو بغداد. أما الثاني فيقو..
بأنّ توزيع الدفعة العاشرة من الشقق السكنية لذوي الاحتياجا..
الخاصة، سيتم الثلاثاء المقبل. بينما الخبر الثالث كان طري..
نوعاً ما، يتحدّث عن طبيبة أمسكت فأراً في مخزن لأحد المشافي
الحكومية، وقامت بالتقاط صورة تذكاريّة معه، كأول فأر يزور
المستشفى!

«كيف رأيتَ بغداد بعد كل هذه السنين، أستاذ؟» سألني السائق وقد
أخفض صوت المذياع.

فقلت، وأنا أتأمّل من النافذة فندقاً يناطح السحاب:

«جنّة.»

انتهت نشرة الأخبار، لتليها فقرة الأغاني العراقية. رجوته أن
يرفع صوت المذياع قليلاً لنستمع. استجاب الشاب، وليته لم يفعل،

... كان سعدون جابر يغني بلحن سماوي مُبكٍ: « يا أمي يا أم الوفا.. يا طيب من الجنّة.. يا خيمة من طيب ووفا.. جمعتنا بالحب ... ?الما..» سالت من عيني إذ ذاك دمعة، ما كان لها أن تفعل لو أنّ أمي بانتظاري عند الباب. وصلنا إلى بغداد الجديدة دون أن أشعر بالوقت، فالطرقات غير مزدحمة رغم آلاف المركبات التي تسير فوقها. لقد تخلّصت أمانة العاصمة من التقاطعات التي تثقل السير عادةً، وأبدلتها بالجسور والأنفاق. وليس هذا فحسب، بل أخبرني السائق بأنّه قرأ خبراً في الجريدة يقول بأنّ بغداد ستُعلن بعد أربعة أعوام مدينةً خالية من الإشارات الضوئية.

«هنيئاً لكم.. يا أخي حتى أوسلو لا تمتلك هكذا تخطيط.» علّقتُ.

«أستاذ، يا أوسلو؟ يا بطيخ؟ هذه بغداد.» ردّ السائق بمزيد من الفخر.

«فعلاً، هذه بغداد.. طيّب عزيزي، أنزلني هنا لو سمحت، لقد وصلت.»

«على عيني.»

ما إن لامست قدماي الأرض، حتى استولى عليّ اضطراب كبير وحيرة. فبغداد الجديدة قد تغيّرت كثيراً، واختفت معالمها القديمة! لقد باتت طرقاتها واسعة، وأرصفتها أنيقة، وحدائقها تزدحم بأشجار الكالبتوس التي تتراقص على أكتافها أفواج من العصافير السعيدة. كنت أسير على غير هدىً، خجِلاً من السؤال عن دكان عطارة بائس. لكنّي شاهدت، وأنا أقطع إحدى

الحدائق، رجلاً وقوراً يرتدي بدلة رمادية ويجلس على مصطبة، وعلى كتفه تتكئ عجوز ترتدي السواد وتغطي رأسها بقوطة قهوائية صغيرة. حملتُ حقيبتي واتجهت نحوهما. ألقيت التحية وسألت عن دكان حمزة العطار. ردّت المرأة العجوز بأنهما جديدان في هذا الحيّ ولا يعرفان أحداً بهذا الاسم. شكرتها وهممت بالمضي، لكنّها أمسكت بيدي وطلبت منّي الجلوس، فجلستُ. مدّت المرأة يدها إلى حقيبة صغيرة بالقرب منها، وأخرجت علبة عصير ونستلة، قائلةً: «تفضّل يا ابني.. هذا لثواب دُريد.» كانت يدها البيضاء كالقطن ترتعش، بينما يُطأطئ الرجل الوقور رأسه حزناً. جلست عندهما أقضم النستلة على مهل، مصغياً لحديث المرأة الحزينة. قالت بأنهما فقدا ابنهما الوحيد، دُريد، في غارة للطيران الأمريكي على بغداد عام 2003م. كان يعمل آنذاك مهندساً في بدّالة العلويّة التي تحوّلت إلى كوم خردة جراء القصف. امتلأ البيت عليهما، من بعده، بالأشباح وتنغصّ نومهما، فقرّرا الرحيل. باعا البيت وانتقلا من الأعظميّة، ليستقرّا في شقة صغيرة في واحدة من العمائر الشاهقة لبغداد الجديدة. تقول الأم الثكلى بأنهما يقضيان النهار في هذه الحديقة، دون أن يُعترَض طريقهما ويُسألا من أيّ أحياء بغدادَ جاءا، وبأيّ دين ومذهب يعتقدان. ثم ختمت كلامها بآهةٍ طويلة: «آآآآه يا ابني، الموت لا يسأل، لا عن دين، ولا عن مذهب.. اسأل دُريد إذا ما تصدّق.»

قبّلتُ جبينها وغادرت الحديقة. رأيت على الجانب الأيمن من الطريق، كشك اتصالات صغيراً. اتجهت صوبه مسرعاً، مثل طفل عثر على أمه. ابتعت شريحة موبايل وبطاقة تعبئة. أخرجت الشريحة النرويجية، تيلينور، من الهاتف ورميتها في سلّة القمامة، ثم وضعت الشريحة العراقية بدلاً عنها، وأعدت البطارية والغطاء، وبصمتُ على زر التشغيل. نسخت الأرقام المخزّنة في الهاتف الجوّال إلى الشريحة، واتصلت بعبير. كان الجواب: «عذراً.. رقم الهاتف المطلوب قد يكون مغلقاً، أو خارج نطاق التغطية.. الرجاء، الاتصال لاحقاً.»

- 43 -

كنت دائمَ الاتصال بأمّي، وكانت تنقل لي، عبر الهاتف، أخبار جلال؛ الحسنة الوحيدة في تاريخ بابا عفلق. أخبرتني بأنّه تزوّج، ورُزق بطفلة جميلة اسمها حلا، قالت بأنّ جدّها هو من منحها ذلك الاسم تيمّناً بابنة الرئيس الذي تملأ صورُه جدرانَ البيت. افتتح جلال، بعدما صار أباً، صالوناً لحلاقة الرجال في محلّتنا، وراح يمرّ لتفقّد عمّته كل مساء بعد الإغلاق. كان يصطحبها إلى جلسات العلاج الكيمياوي، ولا يسمح لها أبداً بترك الجرعات. كنت أعرف بأنّه سيفعل ذلك، لكنّ الذي كان يُدهشني في الأمر

هو عناد أمي وإصرارها على البقاء وحيدةً في المنزل حتى آخر يوم في حياتها.

كانت ليلة شديدة البرودة، تذكّرتُ فيها بأنّي لا أملك بطاقة اتصال دولي، فقرّرت النزول. لبست المعطف، واعتمرت قبعة سميكة تكفي لتدفئة عجل أعزب، ثم حصّنت قدمَي بجزمة مبطنة بالفراء، ونزلتُ إلى كراج العمارة. وجدت ندف الثلج قد دفن السيّارات المصطفّة هناك، وحوّلتها إلى تلال بيضاء صغيرة. تقتلني الكراجات المفتوحة. تناولت المعول ورحت أزيح الثلج عن ظهر سيّارتي. قشطتُ، من بعدئذ، بلّورات الجليد المتماسكة بخبث فوق الزجاج، وجلست خلف المقود. أدرت المفتاح، لكنّ المحرّك لم يستجب. أعدت الكرّة ثانيةً وثالثةً وتاسعةً بلا جدوى. لقد أقسم المحرّك ألّا يدور حتى يبيض الديك. ولأنّي لن أجد ديكاً سائباً في هذا الليل المنجمد كي أقنعه بالمبيض، قرّرت إتمام المهمّة سيراً على الأقدام. كانت المسافة نحو محل البقالة قصيرة، لكنّ السير في الثلج يبطئ الحركة ويضاعف المسافات، كما يستلزم الحذر الشديد خوفَ الانزلاق والوقوع. لقد عرفتُ هنا سعادةَ أن ينقضي الشتاء بلا كدمات ولا كسور. وصلتُ أخيراً، ابتعت بطاقة اتصال دوليّ تكفي لساعتين، وعلبتَي سجائر، وجبن مثلّثات يحرص كاكا سيروان، صاحب المحل، على توفيرها، مع ربطة خبز واحدة. عدت إلى الشقة، أزحت عن كتفَيَّ ندف الثلج عند الباب، ورفست بقدمَيّ الأرض مرّتين متتاليتين كي أتخلّص مما علق منه بالجزمة،

دلفت إلى الداخل. خلعت المعطف والقبعة وحذاء الفرو الوفيّ، ذهبت نحو المطبخ. صنعتُ قدح شاي سريعاً، وأخرجت خبزة ن الكيس، وضعتها في الفرن حتى سخنت. مسّدتُ فوقها، بعد إخراجها من الفرن، قطعتَي جبن، ورششتهما برشّة زعتر شاميّ، م برمتها لتكون سندويتش جبن بالزعتر. جلست في الصالة أمام التلفاز أتعشّى. أدخلت وأنا أقضم السندويتش رقم البطاقة في الهاتف، وضربت رقم بيتنا في بغداد.

لقد ساء حال أمي في تلك الأيّام كثيراً، وصرت أتصل كل ليلة لأجل الاطمئنان عليها. كانت تجيبني بأنّها بخير وأنّ الدواء الذي بدأت بتناوله مؤخراً يساعدها كثيراً، لكنّي لم أكن أصدّق ما تقول، فنبرة الألم في صوتها، ولهاث صدرها يقولان عكس ذلك تماماً. رنّ الهاتف، والسمّاعة لم تُرفع. أعدت الاتصال ثانية، ولم تُرفع! توقّفت اللقمة إذ ذاك عن الدوران في فمي، وبدأ القلق يضرم النار في جسدي. نهضت من مكاني. خرجت إلى البالكون. عاودت الاتصال ست عشرة مرّة دون جدوى، فأيقنت بأنّ أم سعيد قد فارقت الحياة. راح الحزن يمدّ مخالبه ليفترس قلبي. رشقت الهاتف بالأرض، وصرخت بوجه السماء: «لمَ كل هذا يا رب؟! ماذا فعلتُ لكَ، أخبرني؟» لكنّ أحدهم ضرب الجرس، ليوقف طوفان العتب الذي بدأ ينهمر. مسحت دموعي بطرف القميص وفتحت الباب. كان الظلام يغلّف الدهليز، لا أدري لماذا، وأحدهم يقف قبالتي. لم أقدر على التعرّف عليه، كان طويلاً، نحيفاً، يغطّي

رأسه بقلنسوة صوفيّة ويضع على فمه لثاماً داكناً. قال بصوت أعر...
«أين قبري؟»، فمددت يدي كي أزيح اللثام عن فمه، لكنّه تلاشى،
وعاد النور إلى الدهليز من جديد.

- 44 -

لا أدري ما الذي دهاها؟! أعدتُ الاتصال بها ألف مرة، لكن
هاتفها ما زال خارج التغطية. لقد آيستُ من الوصول إلى جلال
ولا أريد اليأس من سماع صوت عبير. هما كل ما لديّ في بغداد.
اتصلت بشركة التاكسي واستأجرت واحدةً إلى الباب الشرقي.
قرّرتُ أن أمكث في فندقٍ هناك، ريثما أجد طريقاً إلى بيت خالي
الذي ضاع في زحمة العمائر والطرقات الجديدة. طلبت من
السائق أن يختار لي فندقاً جيّداً، ففعل بكل سرور. ما ألطف سائقي
التاكسي في بغداد! لقد دلّني على فندق كبير يقع بين ساحة التحرير
وجسر الجمهوريّة، ثم أوصلني عند الباب ومضى. خيّرني موظّف
الاستقبال بين الطوابق، فاخترت الثالث عشر من جهة الشرق. كنت
أريد الاستمتاع بالنظر إلى بغداد من الأعلى. لقد بدا المنظر ساحراً
من هناك؛ إذ يطلّ الباب الشرقي على ساحة التحرير بواجهات
زجاجية أنيقة، تتراصف على أجساد أبنية شاهقة، ذات طراز بغدادي
فريد، وفي المنتصف نافورة عملاقة تتراقص كأنّها واحدة من

جواري ألف ليلة وليلة. لقد تذكّرت وأنا أنظر من الأعلى، بدهشةٍ مشوبة بالسعادة، صديقَ الغربة؛ جمال سعدون، ولكم تمنّيت في تلك الساعة أن أراه كي أقدم له اعتذاري لأنّي سخرتُ منه حين قال بأنّ بغداد ستمسي لاس فيغاس! كان جمالُ صادقاً، فقد أمست بغداد كذلك وبجدارة. أغلقت باب البالكون، وأنا أدندن: «بغداد يا قلعة الأسود.. تارارا.. ومنارة العهد التليد.. تيرارا..» ثم غيّرت ثيابي بعد حمّامٍ منعش، وتأهّبت للخروج في جولة سريعة، لكنّي شعرت بدوارٍ في رأسي وسقطت على الأرض. أفقتُ بعد ذلك، فرأيت إحداهن ترتدي صدرية بيضاء، وتقف قربي.

«أين أنا؟»

«الحمد لله على السلامة أستاذ.. أنت في المستشفى.»

«هل قلتِ في المستشفى؟! ماذا حصل؟!»

«لا شيء، مجرّد إرهاق لا أكثر.»

حضر طبيب شاب بعد ذلك، قال بأنّ عليّ أن أبقى في ضيافتهم إلى الغد، كي تُجرى لي بعض الفحوصات والتحاليل المختبرية. أومأت بالرضا، وأسندت رأسي إلى الوسادة محاولاً النوم. خرج الطبيب وأغلق الباب خلفه. سحبت الشرشف الأبيض وتغطّيت. لا أستطيع النوم مكشوف الوجه. لكنْ، حالما استقرّ الشرشف على وجهي، تذكّرتُ بأنّي لمحتُ أمراً غريباً في الغرفة؛ كان التقويم المعلق على الحائط يشير إلى تأريخ

خاطئ. أزحت الشرشف ونظرتُه، نعم، كان تأريخاً خاطئاً: ٧
تموز 2023م! ما هذا الهراء؟! ما زلنا في 2005. لا بد من أنّه خطأ
مطبعي، أو مقلبٌ تافه كالذي بدأ يظهر على الفضائيات في هذه
الأيام، قلت في سرّي، وغطستُ تحت الشرشف من جديد. لكني
سرعان ما قفزت مرعوباً من السرير، متذكّراً اللافتة المعلّقة أمام
الفندق. كان إعلاناً لحفل غنائي، وكان التاريخ على اللافتة يشير
إلى العام 2023 كذلك! يا إلهي، ما الذي يجري؟! كيف مرّت كل
هذه الأعوام؟ كبست على الزر المثبّت أعلى السرير، فحضرت
الممرضة.

«نعم، تفضّل أستاذ، بماذا أساعدك؟» سألتْ.

«هل لي أن أعرف ما هذا؟» قلتُ مشيراً بيدي إلى التقويم المثبّت
على الحائط.

«تقويم.»

«أعرف بأنه تقويم، من قال عنه جورباً؟ لكن ما هذا التاريخ المكتوب
عليه؟ كيف قفز ثمانية عشر عاماً؟!»

ضيّقت الممرضة عينيها، وحكّت جبينها بطرف إصبعها، ثم مدّت
يدها في جيبها، وأخرجت محراراً صغيراً كي تدسّه في مؤخرتي.
ضربتُ يدها وأسقطت المحرار صارخاً:

«أبعدي هذه الأنبوبة اللعينة عني وأجيبي: لماذا لعبتم بالتأريخ؟»

لكنّها أجابت ببرود وثقة:

«أرجوك اهدأ، أستاذ، التأريخ صحيح، صدّقني.»

«ماذا تعنين بأنّ التأريخ صحيح؟! هل نحن في العام 2023؟!»

«نعم، واليوم هو الجمعة، السابع من تموز 2023.»

هرعتُ، حين سمعتُ كلام الممرّضة، إلى الخزانة في الحائط. خلعت قميص المستشفى ولبست ثيابي، ثم طلبت منها أن تأتيني بفاتورة العلاج كي أغادر. قالت بأنّ الدخول والعلاج مجانيّ، على حساب الدولة، وطلبت مني أن أنتظر حتى يسمح لي الطبيب المشرف بالمغادرة. لكنّي رفضتُ بإصرار، ثم وقّعتُ على مسؤوليتي وخرجت. عند الباب اتصلتُ بوائل، سائق الجيمسي:

«وائل، قل لي ماذا يجري بحق الجحيم؟ كيف صرنا في 2023؟»

«ما بك يا أستاذ؟ إلى الآن لم تكتشف الحكاية؟!»

«أيّ حكاية؟!»

«حكاية البنزين من ذلك الجندي الأمريكي.»

«تقصد الغول الأزرق؟»

«نعم، بالضبط.»

«ما به هذا الخراء؟»

«عجيب، ألا تعرف بأنّه عبر بنا الزمن؟!»

فقلتُ ساخراً من كلامه:

«وهل عبر بڤيزا أم بدون ڤيزا؟»

لكنّه ردّ بنبرة جادّة، قبل أن ينهي المكالمة:

«أستاذ، لا ڤيزا ولا بدون ڤيزا، الأمر كما أفهمتك.. يبدو أنك نسيت كيف طارت الجيمسي آنذاك!»

بُهتّ من الصدمة، وأنا أستمع إلى ما يقوله وائل، لكنّي استعدت تماسكي، وعدت إلى الفندق. فتحت اللابتوب. أدخلت في خانة البحث كلمة «الغول الأزرق» فظهرت أمامي مئات الخيارات التي تحكي عن أنواع العفاريت وقصص الجان والسَحَرة. يهوى العرب حكايات الجان ويحرصون على معرفة أحوال الطقس في جمهوريّات العفاريت المتحدة، لذا تراهم يُتخِمون محرّكات البحث بها. قلبت الاسم إلى اللغة الإنكليزية وأضفت له كلمة وقود، فتعثّرتُ بمقال طويل يتحدّث عن اختراع علميّ مسجّل لدى وكالة الأبحاث العلميّة في وزارة الدفاع الأمريكية. كان الاختراع قد سُجّل بتاريخ الأول من يوليو 1994م عن وقود مركبات مطوّر يمتاز بقابلية التفاعل الكهروضوئي، الذي يؤدّي بدوره إلى الانفلات من عقال الجاذبية والتسارع بالزمن. إلا أنّ هذا الاختراع العجيب ـ بحسب تقرير الوكالة ـ لم تتم تجربته إلا في حرب الخليج الثالثة 2003م!

تذكّرت، وأنا أقرأ مندهشاً سطور المقال، ما قاله لي ذات مرة موظف البريد، هنريك فينستاد، بأنّ أمريكا تنظر إلى البلدان المنهكة على أنّها فئران اختبار، ولم أصدّقه حينها واتهمته بالمبالغة. لكنّ المدهش أكثر مما ينبغي هو طول صبر أمريكا هذه، فقد انتظرت كل هذه السنين من أجل أن تعثر على بلدٍ منهكٍ تجرّب فيه اختراعها! أغلقت اللابتوب وأنا أتمتم: «لا بأس.. لا بأس.. دعهم يجرّبون، فقد جرّبوا فينا الكثير من القنابل والمشعّات والمسرطنات، ما الضير إذن من وقود مركبات يحرق الزمن؟! على أقل تقدير، سنختصر به آلاف الهزائم التي لا شك ستحدث خلال ثمانية عشر عاماً.»

- 45 -

الآن بدأت سهرتي، هتفتُ وأنا أنهي المكالمة مع خدمة العملاء في الفندق. طلبت منهم وجبة عشاء فاخرة مع زجاجة ويسكي ومكعبات ثلج. لقد قرّرت أن أشرب بصحّة الغول الأزرق، الذي لولاه لما عبرت ثمانية عشر عاماً لا شكّ كانت ملأى بالخيبات. لن تجرحنا الخيبات حين تمرّ بلا وعي، فنحن نقاسي الشعور بالخيبة لا الخيبة ذاتها.. لا بأس بالخيبات تحت التخدير. أحضر النادل الطلب. دفع إلى وسط الغرفة طاولة طعام أنيقة ومغطاة بشرشف بنفسجي داكن، ثم سأل بأدبٍ وذوقٍ عاليَين إن كنتُ بحاجة لشيء آخر، فقلت:

«نعم، لديّ سؤال لو سمحت.»

قال:

«تفضّل.»

قلت:

«بالله عليك أخبرني كيف أصبحت بغداد هكذا بعد كل ما جرى عليها؟! ماذا صنعتم كي تعيدوا إليها الروح، وتجعلوا منها جنّة؟»

فابتسم النادل وقال:

«لا عجبَ يا سيّدي، فقد مرّ على سقوط بغداد وخرابها الأخير عشرون عاماً بالتمام والكمال، ولو أتينا بحكومة من حمير، لفعلتْ ما تراه اليومَ وأكثر.»

شعرت بالخجل أمام النادل، فمن البداهة أن كل هذه السنين قادرة على تحويل الصحراء إلى مدينة تناطح أبراجُها السحاب، ومن الطبيعيّ أنّ أيّ حكومة في العالم، مهما كانت جاهلة ومتخلّفة وابنة كلب، تستطيع أن تبني ما هُدم، في زمنٍ أقلّ من ذلك بكثير. دسستُ في يده بخشيشاً بعشرة دولارات، قبل أن يغادر ويغلق الباب خلفه. دفعت طاولة الطعام نحو الشُرفة، وأحضرت جهاز اللابتوب. فتحت ملف الأغاني، واخترت ما يُناسب هكذا نوع من السهرات، فبدأت أم كلثوم تغرّد: «يا فؤادي.. لا تسلْ أين الهوى..

كان صرحاً من خيالٍ فهوى.. اسقني واشرب على أطلاله.. واروِ عني طالما الدمع روى.. كيف ذاك الحب أمسى خبراً.. وحديثاً من أحاديث الجوى..» رفعت الشرشف عن وجه الطعام. تناولت قطعة لحم صغيرة متبّلة ومشويّة على الفحم، ثم رفعت الكأس لتعانق سماء بغداد من على ارتفاع ثلاثة عشر طابقاً، وأنزلتها في جوفي. كان السكوتش الأسكتلندي معتقاً لسبعين عاماً بحسب الملصق على الزجاجة، ولكنّه زاد في العُتق سبعين عاماً أخريات حين مدّت السيّدة نهاية هذا البيت: «وحنيني لك يكوي أضلعي.. والثواني جمرااااات في دمي.»

لقد أخبرني موظف خدمة العملاء عبر الهاتف بأنّ هذا النوع من الويسكي يورّد خصيصاً لأصحاب المزاج العالي في بغداد، وأنّ هنالك أنواعاً أُخَر متوفرة لديهم، لكنني فضلّتُ السكوتش الأسكتلندي لصحبة قديمة بيننا. بدأت شاشة اللابتوب، بعد الكأس الرابعة، تتمايل. لم أكترث، داومت على الشرب والمزمزة ناظراً إلى بغداد من الأعلى. ويْحي، أين كنت عن هذا الفردوس العظيم؟! كيف ضيّعت عمري في جحيم الثلج هناك؟! لماذا تأخّرت كثيراً بالعودة إلى بغداد؟! «بغداد جنّة يا ناس، بغداد جنّة.» هتفتُ وأنا أرفع الكأس، ثم رشفتها دفعة واحدة وأنزلتها على الطاولة فتمايلت الزجاجة أمامي. الشرفة تمايلت هي الأخرى.. بغداد كلّها صارت تتمايل!

«ماذا يجري بحق السماء؟!» صرختُ بأعلى صوتي. خلعت

ثيابي. اعتليت المنضدة كي أرى ما أصاب المدينة. شاهدت
ناطحات السحاب تتراقص وتوشك على السقوط، بينما أعمدة
الإنارة تهتز مثل خيط القوس بعد انفلات النبلة. مددت رأسي
من الشرفة ونظرت إلى اليمين. كان نصب الحريّة مستقراً بادئ
الأمر، لكنّ إيقوناته بدأت تهتز هي الأخرى وتتساقط واحدة تلو
الأخرى. سقطت المرأة الحانية على جثة ابنها الشهيد أولاً. ثم
سقط الشهيد. وسقط الطفل الذي يشير إلى بداية الطريق. يا إلهي!
ويا إلهي! ويا إلهي! ما الذي يحدث؟! لم يبق من نصب الحرية
سوى الجندي، الذي أوكله جواد سليم مهمة تكسير القضبان،
ونقل الجماهير نحو الازدهار. أيّ ازدهار وبغداد تتهاوى يا
سليم؟! شربت الكأس الأخيرة من الزجاجة الأسكتلنديّة، وعدت
للاطمئنان على الجندي، لكنّه خيّب ظنّي، وشرع بالاهتزاز هو
الآخر. رميتُ الكأس حينئذ من يدي، وصعدت فوق الترّاس
منادياً عليه: «تماسك أيها الجندي العظيم.. أنا قادم.»

لقد قرّرت إنقاذه، لأنّ الجندي إذا سقط، سقطت الأوطان
من بعده، وغدتْ مبْولةً للكلاب والقطط. سمع نزلاء الفندق
صوتي، فهرعوا إلى الشرفات كي يشاهدوا ما يحدث. كنت
عارياً تماماً، أقف على طرف الشرفة، وأنادي على الجندي أن
يتماسك حتى أصل. لم أكترث لهم. أغمضت عينيّ. أخذت
شهيقاً طويلاً. ثم قفزت من الشرفة نحو النُصب، فارتطمتُ
بالأرض وانتبهت.

«يا إلهي! هل هذه بغداد؟!» قلت بدهشة وفزع.

«كلا.. مقاديشو.» ردّ وائل ساخراً.

ـ 46 ـ

بدت بغداد وكأنّ إعصاراً قد ضرب أركانها، وأحالها إلى مدينة منكوبة! المحال متهالكة، والعشوائيّات تزحف مثل النمل على الأرصفة وما بين الطرقات. كان الغبار يلفّها، ويكسوها سحنةً صحراويّة خانقة. كل شيء فيها بدا بلون الصحراء، بسبب عاصفة ترابية هبّت، لا أحد يدري من أين، وتمكّنت من رئتَيها. لم أنتبه لوداع رفقاء السفر، ولا لمزاح السائق الشاب وهو يوسم بغداد بمقاديشو الفقيرة، فقد كنت مصدوماً مثل قط تعثّرت قدماه وسقط من ظهر بناية شاهقة. نطّ الصداع حينذاك، وبدأ زعيقه يتموسق مع ضجيج مولّدات الكهرباء المطروحة أمام المحال وعلى الأرصفة. كان ضجيجها يبعث على الصمم. وقفت ممسكاً برأسي، ناظراً بنصف إغماضة إلى وجوه المارّة، المتعبين وكأنّهم خرجوا للتوّ من مارثون طويل.

استأجرت تاكسي إلى بغداد الجديدة، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى دكان حمزة العطّار خلف حيّ السريان، إن كان يعرفه. هزّ الرجل برأسه، خافضاً صوت المذياع، وقال: «اركبْ.. بغداد

الجديدة ما تضيّع!» ثم عاد لرفع الصوت. كان سائقاً طروباً يربّت على المقود متمايلاً ومردّداً مع الأغنية في المذياع: «يا البرتقالة.. يا البرتقالة..» نظرت من خلف الزجاج نحو بغداد، محاولاً إلهاء نفسي عن سماع تلك الضوضاء، فرأيت الخيبة. كانت مدينة بائسة، مسوّرة بالخرائب والعشوائيات، ليس فيها ثمة بناء، ولا إعمار، ولا ازدهار، ولا حتى حاويات للقمامة. وحدها المزابل تزدهر وتصدح مثل «البرتقالة».

في الواقع، لم تكن بغداد قبل ذلك باريسَ، ولا ستوكهولم، ولا حتى إسطنبول أو القاهرة بل كانت مدينةً جائعة قرّر العالم، في لحظة خسّة، معاقبتها على ذنب لم تقترفه، فضرب على أهلها حصاراً قاسياً، مات بسببه الآلاف منهم، وهاجر وتشرّد مئات آلاف آخرين. كانت أمريكا وحلفاؤها تقول، بصلافة معهودة، عن ذلك: «نريد بهذا التجويع قصّ أجنحة النظام ومعاقبته على اجتياحه للكويت.» لكنّ النظام، وآل بيت النظام، وأصحاب النظام، لم يشعروا بالجوع ولم يباتوا ليلةً واحدة بلا عشاء، فالأنظمة الدكتاتوريّة وحواشيها وكلابها وقططها لا تجوع ولا تعطش في العادة. العراقيون وحدهم من طحن الجوع أضلاعهم، وأنهك الحصار حياتهم. كانوا في تلك الأيام يصنعون الخبز من النخالة، وينقّعونه بمرق أبيض خالٍ من المونة. لقد اشتروا البيض بالمفرد، ومعجونَ الطماطم بالملاعق، وزيتَ الطعام بأكياس صغيرة بائسة، ثم أسّسوا في كل مدينة سوقاً عشوائية لبيع وشراء الرز والعدس الرديئين، وأرضعوا أطفالهم حليباً مستورداً

من أسوأ المناشئ العالمية، مردّدين ما قاله المتنبي ذات يوم: «أنا الغريقُ فما خوفي من البللِ.»

لقد شحّ الخير لديهم في تلك الأيام، وازدهر سوق العوز والبالة، فانتشرت البناطيل والفانيلات المستعملة، والجاكيتات ذات الخامة الرديئة والمعاد صبغها. الأثاث المستعمل هو الآخر امتلأت به الأرصفة، بعدما استغنت الكثير من النساء عن غرف نومهنّ وافترشن دفء الأرض. كان سرير العرس ينتقل من عروس إلى أخرى لينتهي به المطاف قطعة خردة، يقايضها بائع العاديّات بإبريق مصنوع من النايلون المعاد. لقد باع الفقراء كل ما طالته أيديهم، حتى سقوف دورهم، ليوفّروا الخبز لعيالهم. في أحد المساءات أخبرتني أمي، عبر الهاتف، بأنّ جارنا احتفل لأنّ الدولة قرّرت منح الشعب مكرمة عظيمة. كانت المكرمة دجاجةً مجمّدةً ومغلّفةً بكيس مكتوب عليه: «مكرمة السيّد الرئيس القائد حفظه الله ورعاه.»!

كانت بغداد آنذاك جائعةً ومتعبةً، مثل تلك التي تيتّمتْ ولم يرحم بها أحد. وكانت أخبار جوعها تردنا من هناك، فنتظاهر في المنافي، ونصرخ بوجه العالم دون جدوى. لكنّ الذي رشّ الملح فوق جرح المأساة هو أنّ من جوّعها بالأمس جاء اليوم مدّعياً خلاصها، فأفقدها الأمان وحوّلها إلى ساحة فرق شعبية. ساحة مجّانيّة بلا أسوار، يلعب فيها من يشاء، ومتى ما يشاء، وكيف ما يشاء!

أوقفتُ أحد الفِتيان، من الذين كانوا يلعبون الكرة في الشارع، سألته عن بيت الخال إبراهيم، فأشار بيده نحو دار عالية، مكسوّةٍ بالآجر، قائلاً: «هذا بيت سيّد إبراهيم.»

«رفيق إبراهيم، صار سيّد إبراهيم؟! سبحان مغيّر الألقاب!» تمتمتُ ماضياً نحو الدار. طرقتُ البابَ. فتحتْ لي فتاة صغيرة في السادسة من العمر، تلفّ رأسها وعنقها بحجاب قطنيّ أبيض. كانت حلا، ابنة جلال. لم تتعرّف عليّ، فقد ولدتْ بعد هجرتي بأعوام طويلة. أطلّ جلال من نافذة المطبخ. كان يحمل مسدّساً محشوّاً، ما أن رآني حتى خبّأه خلف ظهره. أدخلني إلى غرفة الضيوف، دون لهفته المعهودة، فشعرتُ بنوع آخر من الغربة. جلسنا متقابلَين كالخصماء، تشهد علينا صورة كبيرة لأحد مراجع الدين، كانت معلّقة على طول الجدار في غرفة الضيوف. لم ينتبني الشك بأنّي رأيت في مكانها، ذات يوم، صورة أخرى لشخص آخر، فقد بان من تحتها أثر بروازٍ قديم. على الجدار الآخر صورٌ للأضرحة والمزارات الدينيّة في النجف وكربلاء.

التلفاز هو الآخر كان يحمل على ظهره صوراً صغيرةً مؤطّرة لرجال دين بعمامات بيضاء وسوداء. لقد بدا البيت وكأنّ خالي إبراهيم لم يفارق هوايته في تعليق الصور!

بعد لحظات أطلّ علينا شيخٌ مهيبٌ بذقنٍ مشذّب وشاربين محفوفي النهاية، يرتدي ثوباً عربيّاً أبيض، ويضع على رأسه طاقيّةً قطنيّة بيضاء. مدّ يده نحوي بوقارٍ شديد بعدما ألقى تحيّةً مشبعة بالخشوع المصطنع: «السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته.» حدّقتُ فيه جيّداً، كان هو؛ بابا عفلق، الرفيق الذي اعتاد أن ينام بالزيتوني ويصحو بالزيتوني، والذي تهابه، لسطوته، بغداد الجديدة وأزقتها. لكنّه تحوّل، كما الحرباء، من حضرة الرفيق إبراهيم إلى سماحة السيّد إبراهيم. تذكّرت حينها بيتاً من شعر الدارمي، كنت قد رأيته مخطوطاً بالبوية على جدار إحدى المدارس في الطريق: «عمامة وسبع طويات وأربع محابس.. قبل السقوط بيوم زيتوني لابس». لستُ ضليعاً في الشعر الشعبي، لكنّي شعرتُ، وأنا أنظر إلى خالي إبراهيم، بأنّه واحدٌ من المقصودين به. قاتل الله الأفاعي كيف تبدل جلودها! عرفت بأنّه اختفى في الأيام الأولى التي تلت سقوط النظام في بغداد، وعاد للظهور من جديد بهيئة سيّد المنطقة الشهم الذي أنقذ، يومَ كان يعمل مع النظام، ألفاً وتسعمائة وتسعين شاباً وشابّةً من الإعدام. وبسرعتهم المعهودة صدّقه العراقيون، وصاروا ينادونه بالسيّد إبراهيم. ما أقصر ذاكرة العراقيين، وما أطيب قلوبهم!

لم أُعِره بالاً ورحت ساخراً أسأل؛ أين حلّ الدهر بالقائد الضرورة يا ترى؟! لكنّ نظرات السيّد الخال كانت تنذر بعاصفة قادمة، كتلك التي كانت تهبّ بيننا أيّام زمان، فاختصرت الطريق وأخبرته بأني لن أمكث طويلاً، بسبب ارتباطي بموعدٍ هام. تناولنا الغداء معاً بعد ذلك، واستأذن هو لارتباطه باجتماع حزبي في المقرّ.

«ما زال بابا عفلق يحبّ المقرّات الحزبيّة؟!» همستُ لجلال ممازحاً، لكنّه أغمض عينيه وأطبق على فكّيه ممتعضاً، فشعرتُ بالخجل، واعتذرتُ.

كانت الميلشيات قد بدأت آنذاك بفرض سيطرتها على أحياء بغداد ـ يقول جلال ـ وأمست لكاتم الصوت الكلمة الفصل في التنافس بينها. مصطلحات جديدة، هي الأخرى، باتت تُردَّد في المقاهي والصحف ونشرات الأخبار؛ سيّارة مفخخة، حزام ناسف، عبوة لاصقة، ميليشيات شيعيّة، ميليشيات سنيّة.. إلخ. لقد أيقظ القادمون من خلف الحدود غولَ الطائفية النائم، وتركوه يفتك بالبلاد ويمزّق أحشاءها، ثم مضوا، بعدما شاغلوا الناس بالكراهية، إلى حفل توزيع الغنائم خلف أسوار المنطقة الخضراء. كان جلال خائفاً، رغم سطوة أبيه وانسلاله تحت عباءة حزب دينيّ مسلّح! شتم أمريكا وحفنة الفاتحين الذين أتوا برفقتها على ظهر دبّابات البرامز، ولعن الساعة التي جاءت بهم إلى بغداد. «أولاد الكلب، جاؤوا من بارات لندن وملاهي

أوربا، ودمّروا حياتنا.» يردّد ابن الخال بين الكلام ساخطاً، بينما أنصتُ إليه وعيني ترنو نحو صورة أخرى معلّقة في غرفة الضيوف. كانت لواحد من أولئك البرامزيّين القادمين مع الأمريكان!

حاولت تغيير مسار الحديث. سألته عن جارنا، الحاج زيني، وأين حلّتْ به الدنيا؟! فقال بأنّه لا يعلم عنه شيئاً، لأنّه لم يذهب هناك منذ أن ماتت أمي. لكنّه تدارك قائلاً: «أكيد هجّروه.» ثم أردف، بعدما تناول صينيّة الشاي من يد زوجته، بأنّ موسم التهجير الطائفي قد بدأ مبكراً في بغداد، وأمسى من الطبيعي أن يجد المرء جارَه، الذي قضى معه ثلثَي حياته، واقفاً لدى الباب لتوديعه. كانت مظاريف التهديد المحشوّة بإطلاقات ناريّة، والتي تُرمى ليلاً من تحت الأبواب، هي التي ترسم هويّة الحيّ السكني وتختمه بالشمع الأحمر. سألته أخيراً عن أم طوني جارتنا الأرملة الطيبة التي كانت تزورنا على الدوام، وتخيط لدى أمي ثيابها، فقال بأنّها حملتْ بناتها وهاجرت إلى كندا.

«عجيب! لماذا فعلتْ ذلك؟! أم طوني لا تنتمي إلى هؤلاء ولا أولئك.» قلت مستغرباً.

ناولني جلالُ قدح الشاي، واعتدل في جلسته، ثم أجاب بنبرة تفوح منها رائحة توبيخ غير مبرَّر:

«يبدو أنّ جنابك لا يدري بأنّ المسيحيين أول من طالته ماكنة التهجير في بغداد!»

«لا، وحقّ أمّي، لا أدري.»

«عجيب! أين كنتَ إذن؟ نائماً في الثلج؟!»

شعرت بأنّ الحديث بات ينقصه الكثير من الأريحيّة، وأنّ ابن خالي صار يرمي بالكلام دون حساب، فأجبته ملاطفاً: «لا.. في البارات والملاهي.» لكنّه لم يبتسم، حتى على سبيل المجاملة، فأحسست بثقل وجودي عليه. استأذنته عندئذٍ، بحجّة اقتراب الموعد، وغادرت. مررتُ ببيتنا في المحلّة المحاذية. كان مهجوراً ليس فيه إلا غبار الأيام. سياجه الخارجي منهدم، والسدرة التي كنت أقرأ تحت ظلّها خاوية من العطش. أفلتُّ سراح آهة طويلة، وانصرفت.

- 48 -

هبّت عاصفة ترابية، جعلت من بغداد تبدو وكأنّها أُمطرتْ بألف طن من الكركم الهندي. البيوت والعمائر والأشجار والأعمدة وحتى نوارس دجلة الحائرة، كلها بدت صفراء بلون الكركم. نظرت، وأنا في الطريق إلى ساحة الأندلس، نحو نصب الحريّة، فرأيتُه مصفرّاً هو الآخر، لكنّ إيقوناته، ولله الحمد، ما زالت في مكانها، والجندي العظيم ما زال شامخاً، يكسّر القضبان رغم شظايا التيه التي نالت من ساعدَيه. وصلتُ الفندق أخيراً. أنزلتُ حقيبتي،

وابتعتُ شريحة هاتف من الكشك المقابل للفندق. وضعتها محل الشريحة النرويجية، واتصلت بعبير.

«سعيد؟! هذا أنت؟!» قالت، والمفاجأة بادية في نبراتها.

«نعم أنا.» أجبتُ بصوت متعَب.

«يا الله! متى وصلت؟»

«وصلت اليوم، قبل ساعات.»

«الحمد لله على سلامتك.»

«الله يسلّمك.. هل نلتقي؟»

«اليوم؟»

«نعم، اليوم، هل يوجد مانع؟»

«لا، أبداً، ولكنّي لست في بغداد الآن، أنا في ديالى، لديّ عمل.»

«طيّب، متى ستعودين؟»

«غداً، لأنّ عليّ أن أرتّب لسفرة الكفل.»

«متى سيفتحون المقبرة؟»

«يوم الأحد.. عليك أن تكون جاهزاً.»

«حسناً، سنذهب سويّة إذن؟»

«كلا، ستذهب وحدك، وسأوافيك مع كادر العمل.»

أعطتني، قبل أن تنهي المكالمة، عنوان المقبرة الجماعيّة في ناحية الكفل، وزادت بأنّها متشوّقة لرؤيتي.. إنّه موعد غرامي على أعتاب مقبرة! ماله العراق لا يكفّ عن الفنطازيا يا إلهي؟!

- 49 -

تُنهك الحروبُ المدنَ وتجعلها مثل أرملة تعيل دزينة أيتام. لقد بدت بغداد منهكةً من الأعلى؛ المحال التجاريّة أغلقت قبل أن تُسدل ستارة الليل، والكلاب السائبة تنتشر في الأزقّة، لتشارك اللصوص الغنيمة. أكداس من النفايات تسفّ على وجه المدينة، وحواجز كونكريتية كئيبة تنام على صدرها، وتقطّع أوصالها بمشرط الدواعي الأمنية. كان زعيق سيارات الشرطة ومواكب المسؤولين لا يهدأ. وكنتُ بين الحين والآخر أسمع صوت لعلعة الرصاص في السماء. شاهدت حركة مريبة لوحدات الجيش الأمريكي بالقرب من شارع السعدون. سألتُ سهيل، موظف الخدمة في الفندق، عنها، فراح يحدّثني عن اعتقالات ومداهمات يقوم بها الأمريكان في الليل، وعن مصادمات تجري هنا وهناك مع فصائل مسلّحة. كان شاباً طيّباً، طلبت منه أن يجلس ليشاركني الفُرجة من الشرفة. قال بأنّ الوضع سيّئ تماماً، وبغداد تنام على بركان طائفيّ يوشك على الانفجار.

ثم دنا منّي ليقول بأنّ عليّ، كي أنجو، حملَ هويّتين، تُشهَران بحسب اللون الطائفي لمفرزة الموت. وعندما رأى الحيرة باديةً في عينَيّ، أردف بأنّه على استعداد لمساعدتي في الأمر. شعرتُ بلمعة صدق في عينيه، لكنّ كثرة القصص التي كان يحفظها بكل تفاصيلها، جعلتني أتريّث في منحه ثقتي. كنت مفزوعاً، وأنا أستمع إلى تلك القصص المتخمة بالموت، والتي يقول عنها سهيل بأنّها كانت لا تجري في الليل فحسب، بل في وضح النهار وتحت شمس الديمقراطية.

«وأين الدولة من ذلك؟!» سألتُه بحرقة.

«هاهاهاها..» ضحك، وأردف:

«بالله عليك يا أستاذ، لو كانت لدينا دولة، هل صار سعر الهويّة عشر دولارات فقط؟!»

شعرتُ بأنّي كم كنت ساذجاً حينها! فمن الطبيعيّ جداً، مع كل الخراب الذي رأيته، أن تختفي الدولة وتُهرَسَ هيبتها. ومن المنطقي جداً أن يبقى سوق المضروب مزدهراً في بغداد، وأن يظلّ الواوي وأخوته يتلاعبون بأختام الدولة وسجلّاتها مقابل مبالغ زهيدة. مددتُ يدي في جيبي ومنحتُ سهيل ثلاثين دولاراً ثمنَ هويّتَين مضروبتَين، مع البقشيش. قال، وهو يغادر الغرفة، بأنّهما ستكونان جاهزتين في ظرف يومين لا أكثر، لكنّه تذكّر الصور الشخصيّة، فأدخلني في نوبة قلق جديدة.

«من أين آتيك بصورة في هذا الليل يا سهيل؟!» قلتُ له متذمّراً.

«لا عليك، أستاذ، نحن في شارع السعدون، في الصباح ستجد ألف استوديو للتصوير السريع.» قال، وأغلق الباب خلفه.

ـ 50 ـ

نزار الشيطان، هو من أغواني بارتياد شارع السعدون. كنا في الثانويّة حينها، وكان نزارُ، صاحبُ الأنفِ الكبيرِ والعلاماتِ السيئةِ في الرياضيّات، عاشقاً للسينما، ينفق مصروفه الشهريّ في مشاهدة الأفلام وتدخين السجائر. سألني في ذلك اليوم: «سعيد، ما رأيك أن تأتي معي إلى السينما؟» فوافقتُ دون أخذ ورَدّ. كنت أعرف جيّداً بأن ليس ثمّة جدوى من الرفض، إذ يمتلك نزار قدرة كبيرة على الإغواء، جعلتنا نلقّبه بالشيطان. وفي ضحى الجمعة كنّا واقفين على باب سينما أطلس، وقد انضمّ إلينا أمجد عبّاس، الفتى الموهوب في الرسم وكتابة الشعر.

كان شارع السعدون عامراً بدور السينما والمسارح، ومزدحماً بالمطاعم ومحال الألبسة ومختبرات التصوير. شاهدنا يومذاك فيلم «جري الوحوش» واقترح أمجد، بعد السينما، أن ندخل إحدى محال التصوير لالتقاط صورة جماعيّة. أتذكّر بأننا عبرنا الشارع نحو استوديو أنيق بواجهة زجاجيّة عُلّقت خلفها عشرات الصور

الملوّنة. وطلبنا من المصوّر لقطة جماعيّة، فأشار بيده نحو حجرة ذات بابٍ خشبي ضيّق، قائلاً: «تفضّلوا من هنا.» كانت الأضواء مسلّطة على جدار، غُطّي تماماً بصورة لشاطئ من شواطئ الكاريبي، بنخلاته الرشيقة والطويلة. أجلس المصوّر أطولنا قامة، نزار، على الكرسي البلاستيكيّ الأخضر، وأوقفنا خلفه واضعَين يدَينا على كتفيه في إشارة للصداقة. ثم كبس على زرّ كاميرا كوداك صغيرة، وقال: «تعالوا في الجمعة المقبلة لاستلام الصورة.» عدنا سيراً على الأقدام باتجاه شارع الرشيد، تناولنا سندويتشات الشاورما، مع شربت زبيب من دكانة الحاج زبالة، ثم رجعنا إلى بغداد الجديدة مثقلين بالسعادة. لم ينته الأمر عند هذا الحد، بل صرنا نأتي كل جمعة إلى شارع السعدون، نشاهد فيلماً جديداً، ونمارس هوايتنا في التسكّع ومشاكسة الشحّاذين، الذين، رغم الحرب، كانوا قلّة. لقد صنعتْ تلك الأيام شغفي بالسينما، وجعلتني أقتصد في المصروف من أجل توفير ثمن التذكرة والسندويتش.

ذات يومٍ تشرينيّ ممطر، كنّا نتسكّع في شارع الرشيد، فاضطررنا للاحتماء من المطر بدخول مقهى الزهاوي هناك. رأينا حينذاك روّاد المقهى متحلّقين حول أحدهم، فدفعنا الفضول نحوه. كان رجلاً وقوراً في خمسينيّات العمر، يرتدي سترة ثقيلة ويعتمر طاقيّةً مسطّحة من تلك التي شاع استعمالها بين المثقفين، وكان يمسك بقلم باركر 45، ويضع إمضاءاته فوق كتب متشابهة يحملونها. عرفت من صاحب المقهى بأنّه

كاتبٌ مشهور، يوقّع للقرّاء روايته الجديدة، فوقفت في الطابور معهم. طلبتُ منه أن يوقّع لي، فضحك قائلاً: «هل أوقّع لك على القميص؟! أين الكتاب يا ابني؟» شعرت بالإحراج حينها، وسط قهقهات الواقفين، لكنّه تدارك: «لا عليك، سأهديك نسخةً على حسابي.» ثم أخرج واحدةً من حقيبة كتفٍ تستريح بالقرب منه، ومنحها على الصفحة الأولى تحيّة وإمضاءً جميلين، وقال مداعباً: «تفضّل، اقرأ وانتعشْ.» كانت تلك أول رواية أقتنيها في حياتي، جعلتني مدمناً على القراءة، حالِماً بدخول كليّة الآداب. لقد شعرتُ، بعد الفراغ منها، بأنّ نزار الشيطان لم يغوني بارتياد شارع السعدون وحب السينما فحسب، بل كان سبباً وراء شغفي باقتناء الكتب. لكنّ ذلك الشغف كان يقتل أمي، إذ يزداد خوفها ويتراءى لها مصير أبي كلما رأت كتاباً بيدي.. لا تحبّ الحكومة قرّاءَ الكتب، كانت تقول.

لا أدري أين حلّ الدهر بنزار الشيطان، ولا بروّاد سينما أطلس التي هُجرت وتحوّلت إلى خربة. عبرت إلى الضفّة الأخرى من الشارع، بحثاً عن استوديو للتصوير. كانت الأرصفة مثقلة ببسطات البضائع الرخيصة، وكان الباعة ينادون عليها، من خلال مكبّرات صوت صغيرة: «حاجة بربع.. حاجة بربع.. حاجة بربع..» رأيت القلق، رغم الضوضاء، مرتسماً على وجوه المارّة، فقد انفجرت في شارع السعدون هذا، عشرات العبوات الناسفة، وزُهِقت على كتفَيه أرواح العشرات منهم. علماً بأنّ

ما يمرّ فيه من سيّارات المسؤولين، في النهار الواحد، يضاهي أعداد الحشرات التي يلتهمها الشعب التايلندي لعام بأكمله. أمعنت النظر في تمثال عبد المحسن السعدون. بدا لي وكأنّه مُسّد بفرشاة ملطّخة بالبوية السوداء، ورُشّ بطبقة ورنيش رخيصة. سيخبرني سهيل فيما بعد بأنّ ما رأيتُه كان نسخةً مقلَّدَة، وأنّ التمثال الأصلي، كان قد سُرق قبل عامين وأُبدِل، حاله في ذلك حال الكثير من تماثيل بغداد، التي باتت مشاعاً لعصابات السرقة وتهريب الآثار آنذاك.

أوصلتني قدماي إلى مطعم كباب كاكا علي، ووجدتُني، بلا شعور ألج الباب وأطلب ثلاثة أشياش مع رأس بصل مشويّ من ذاك الذي لا يكتمل شأن الكباب إلا بحضوره. كانت رائحة اللحم المستريح فوق الجمر تخترق الأنف، وتنفذ نحو العقل، وتطرق باب الذكريات. تذكرت أمي، وهي تُلقم المثرمة اليدويّة الصغيرة قطع اللحم، لتحيلها كباباً يضاهي، في نكهته، كباب سليمانيّة الشهير. كانت توقظني أيّام الجُمَع مبكراً كي أُحضر الصمّون من الفرن القريب إلى بيتنا. وقد اعتدتُ، وأنا في طريق العودة من الفرن، على قضم أطراف الصمّون، وإعادتها في الكيس. كانت عندما ترى الصمّون مبتوراً، تنفجر غاضبة بوجهي، ثم تبرد كعادتها وتبتسم.

أحضر النادل طبقاً تنام عليه أشياش الكباب، وتجلس قربه حبّة

طماطم لسع الجمر وجنتَيها، مع رأس بصل مشويّ حسب الطلب، ونصف ثمرة نارَنج، ثم وضع فوق المنضدة سلّة فيها خبزٌ خارجٌ للتو من الفرن، قائلاً:

«تحتاج شي ثاني، أستاذ.»

«لا، شكراً عزيزي.» قلتُ.

لكنّي تذكّرت أنّي شاهدت عند الباب زجاجة كبيرة فيها لبن أربيل الذي أحبّه، والذي يسبح فيه الثلج بأريحيّة، فناديت خلفه:

«لو سمحت..»

«نعم، أستاذ.»

«واحد لبن من فضلك.»

«من عيني.»

«تسلم عينك.»

رششتُ الكباب بالسُّمّاق، وعصرتُ فوقه نصف ثمرة النارنج، ثم تناولت الخبز، ورحت أمارس واحداً من الطقوس المبجّلة لديّ. في النرويج أكلت الكباب، لكنّه لم يكن بنكهة كباب بغداد وحواريها. ثم أنّ الكباب لا تلائمه المطاعم الهادئة ذات البرستيج العالي والمناضد الأنيقة والمذهّبة، ولا تناسبه موسيقى الجاز الباهتة. الكباب أكلة شعبيّة، تطيب نكهته في المطاعم الصغيرة

المزدحمة، ويلذّ مذاقه حين يُداف بالأغاني الطربيّة والمواويل المندلقة من المذياع. تفضّل، أستاذ، قال النادل، واضعاً أمامي قدحَ لبنٍ عظيماً.. يا الله، ما ألذّه مع الكباب!

أنهيت طعامي، ودفعت الحساب وغادرت. شربت عند الباب شاياً من يد شاب أسمر، يقف خلف عربةٍ صغيرة كُتب على جبينها: «هذا من فضل ربي.» كان يتحدّث بلهجة جنوبيّة جميلة. ظننتُه من ميسان، لكنّه قال: «من الناصريّة.» وأردف: «ماكو فرق، كلنا عراقيين.» ليتهم يسمعونك، أولئك الحمقى الرابضين خلف متاريس الطائفيّة، ويتعلّمون منك أيّها الكادح الطيّب.

مضيتُ في طريقي حتى وصلت ساحة التحرير. انعطفت يميناً، ودلفتُ إلى استوديو للتصوير الفوري. سألت صاحبه عن صور سريعة بخلفيّة بيضاء، للمعاملات الرسميّة، فقال بأنّها لن تستغرق أكثر من عشر دقائق، وأدخلني إلى حجرة تصوير ضيّقة. أجلسني أمام كاميرا كانون حديثة الصنع، مسندة فوق ذراع معدني أسود، ليلتقط لي صورة أسرع من أن يقال عنها سريعة. راح بعد ذلك يرفع عنها بالفوتوشوب آثار الزمن، ويمنحها خلفيّة بيضاء. لكن الكهرباء انطفأت، وبدأ جهاز الحماية بالصفير. ضرب الرجل على المنضدة أمامه، لاعناً تلك الساعة التي قرّر الله فيها أن يخلقه عراقيّاً، ثم راح متذمّراً، يشدّ خيط المولّدة التي تقف أمام الباب. لم تكن الأمبيرات التي تمنحها تلك المولّدة

الصغيرة كافيةً لتشغيل جهاز التكييف، مما حوّل الاستوديو إلى ما يشبه الحمّام الشرقي. خفَتَ الصوت، وتوقفت المولّدة فجأة عن العمل. تذكر بأنّه لم يملأها بالبنزين. استدان لتَرَي بنزين من جاره وأدارهما في جوفها، ليعيدها إلى الزعيق من جديد، غيرَ أنّ جهاز الحماية كان قد توقف، وصار لزاماً إعادة العمل على الصورة من جديد. لقد استغرق الأمر ساعة كاملة، استنشقنا فيها كميّة من عوادم المولّدات تكفي لإصابة فصيل من الفيَلة بالاختناق وضيق التنفّس. ناولني المصوّر في النهاية مظروفاً صغيراً، أبيض اللون، فيه أربع صور شخصيّة بخلّفية بيضاء، مقابل مبلغ زهيد. عبرت ساحة التحرير، إذ ذاك، نحو الباب الشرقي. كان اليوم جمعة والازدحام على أشدّه هناك. كانت المحال والأزقة تعجّ بالمتبضّعين والمتفرّجين، بينما تمتلئ الأرصفة ببسطات الحبوب المخدرة والفياغرا المغشوشة وعُلب الواقي الذكري. وكان بين بسطة وأخرى تشاهد منضدة ترتصف فوقها مئات السيديهات المضروبة، التي تحمل في بطنها أفلاماً جنسيّة ساخنة. لقد تحوّل الباب الشرقي إلى مركز لباعة المخدرات والأفلام الإباحية والمقامرين، وصار لزاماً عليك، وأنت تمرّ من خلاله، أن تحافظ على جيبك من السرقة، وتبتعد عن أفخاخ عصابات القمار المتحلّقين حول الخمس ورقات.

اجتزته مواصلاً السير باتجاه ساحة الخلاني، وشارع الخلفاء. كانت المحال تزدحم بالبضاعة الصينيّة، وكأنّ بغداد مكتوب

على جبينها: «صُنع في الصين.» فالمصابيح والسجّاد والأواني والحقائب والأقلام والدفاتر.. كلّها صينيّة المنشأ. حتى طيور سوق الغزل وبلابلها الغرّيدة، كانت معروضة في أقفاص صينيّة هزيلة، بدلاً من أقفاص الجَريد الأصيلة. قرب سوق الشورجة، رأيت أحدهم يعرض للبيع أعواد طعام خشبية، تحمل حروفاً صينيّة تشبه قطع الزلابية. دفعني الفضول لمعرفة من يشتري أعواد طعامٍ في مدينة يحبّ أهلها أكل الكباب والدولمة. سألته عن ذلك، فقال مبتسماً: «يشترونها لحكّ الظهر.» ضحكتُ لخفّة دمّه، واشتريت منه واحدةً، ثم واصلتَ المسير قاصداً شارع الرشيد.

أرصفة متآكلة تسفّ عليها الأتربة، وبلاطات متساقطة كأسنان لبنية. المحال والأبنية على الجانبين متعبة ومتهالكة، تتشابك فوقها أسلاك المولّدات الكهربائية فتمنحها مظهراً رثّاً. أما الأسطوانات الخرسانيّة التي كانت تميّز هذا الشارع الضارب في القدم، فقد تحوّلت إلى لوحات إعلانات مشوّهة. كان منظر شارع الرشيد مثيراً للصدمة؛ أكوام أزبال، وكلاب سائبة، وقطط تجول آمنة فوق صدره وبين أضلاعه. لقد رأيت كلبَين يتضاجعان بأمن وأمان تحت تمثال الرصافي، وكان الرصافي يسمع لهاثهما، وهو يراقب، بصمت الحجارة، ماردَ الأزبال الذي يزحف نحوه. أما جامع الحيدر خانة فقد بدا حائطه أسود، بلون الأسى، لكثرة لافتات النعي التي عُلّقت عليه، والتي تبدأ بـ «إنّ وعد الله حق» وتنتهي بـ

«إنا لله وإنا إليه راجعون». هي ذاتها قطع القماش السوداء التي كنّا نراها تملأ الجدران قبل عشرين عاماً، وكأنّ حبر موتنا عصيٌّ على الجفاف! قرأتُ في إحدى الصحف المحليّة، المعلّقة على كشك صغير هناك، بأنّ ستمائة واثنين وسبعين عراقيّاً، هي حصيلة الشهر من القتلى. رجال ونساء وأطفال، أزهقت السيّارات المفخّخة والعبوات الناسفة أرواحهم، لا لذنبٍ سوى أنّهم خُلقوا في هذه البقعة من الأرض. شربتُ الشاي في مقهى الزهاوي، وعرّجت على شارع المتنبي قبل أن أعود. فاته الكثير من لم يزر المتنبي يوم الجمعة، لكنّ شارع الكتب هذا لم يكن بأحسن حالٍ من أخوته، فنفايات الورق وأعقاب السجائر تتآلف على كتفيه، وتهديه المزيد من التعاسة. وقفت عند أحد الباعة على الرصيف، كان يضع تلّاً من الكتب القديمة، مع يافطة صغيرة «خمسة بألف». مكتبات شخصيّة يزهد بها الورثة ويستغنون عنها، لينتهي بها المطاف أكواماً رخيصة لدى باعة الرصيف. قرفصت عنده، ورحتُ أقلّب بحثاً عن تواقيع نادرة. عثرتُ في النهاية على ديوان «المعبد الغريق» للسيّاب/ طبعة دار العلم للملايين/ بيروت، يحمل في صفحته الأولى إهداء المؤلف إلى صديقه، الشاعر حسين مردان. لا أدري كيف يفرّط أحدهم بكتاب فيه إهداء بخط السيّاب إلى حسين مردان! اكتفيت به ودفعت للبائع بدلَ الألف عشرة، وعدتُ أدراجي نحو الفندق.

في طريق العودة، شاهدت لافتة نعي معلّقة على مبنى أمانة بغداد. كان مكتوباً عليها:

«إنّ وعد الله حق.. تنعى أمانة بغداد فقيدها الراحل الشهيد المهندس جمال سعدون، الذي استُشهد بتاريخ 21/ 6/ 2005 إثر حادث اغتيال غادر.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.»

- 51 -

علي وعمر؛ اسمان لا يشبهانني، منحني إياهما أحد مزوّري بغداد، مقابل ثلاثين دولاراً بعد البقشيش. فعصابات الموت بدأت تنتشر كالقمل في رأس المدينة، وأنت لا تدري متى يظهر أمامك حفنة من الملثّمين، ليقطعوا عليك الطريق، مطالبين إيّاك بما يثبت انتماءك إلى «عليّ» دون «عمر» أو العكس. لقد أُوقِظَتْ حرب الهويّات، وتم استدعاؤها، وستأكل لعبة «علي x عمر»، التي صُرف من أجلها ملايين الدولارات، الكثيرَ من أرواح العراقيين، سيما أولئك الذين لا يحملون في جيوبهم سوى هويّة واحدة. بل حتى من يحمل هويّتَين، لن يكون في مأمنٍ، ما لم يستطع أن يخمّن مذهب من يعترض طريقه. فكم من «عمر» أشهرَ على طرقات الموت هويّةَ «علي» فأمسى جذعاً بلا رأس، وكم من «علي» أخرج هويّةَ «عمر» في غير محلّها وصار في خبر كان!

أمسكتُ بالبرواز وأطلتُ النظر فيه، فتقاسمني شعوران:

السعادة لرؤية أبي، والخشية من تلاشيه كما في كل مرة. لكنّ عليّ أن أكون محظوظاً أولاً للوصول إلى هناك، فبين بغداد والكفل الكثير من القرى والنواحي الساخنة، والكثير من المفارز الوهميّة، وسكاكين الموت العمياء. ما زلتُ غير مطمئنٍ من النجاة واجتياز مصيدة الهويّات، لكنّ ما يقوّي عزيمتي، ويجعلني أقاوم مخاوفي، هو أنّي سأتعرّف أخيراً إلى شكل أبي. يا الله، كم انتظرتُ هذه اللحظة! سأصوّره بكاميرتي، وأضع الصورة، التي حُرمتُ منها عمراً بأكمله، داخل هذا البرواز، قبل إعادته إلى الجدار في غرفة المكتبة.

ـ 52 ـ

صوتٌ قادمٌ من الدهليز، يشبه دفّ الجنائز. ترقّبت صداه حتى توقّف. رفعت رأسي، فرأيت ملثّمَين برفقة واعظ، يعتمر عمامةً بيضاءَ صغيرة، ويتأبّط مصحفاً. «هيّا انهضْ.» قال أحد الملثَّمَين. عجزتُ عن النهوض، فأمسكا بي، واقتاداني نحو حجرة خلف الباب الرئيس. كانت قدماي تكنسان الأرض، وتخلّفان أثراً يروي نهاية الحكاية. أصعداني إلى المقصلة. ألبسا في رأسي كيساً قماشيّاً أسود. لفّا حول عنقي حبلاً غليظاً، وضيّقاه عليه حتى أصدر صريراً مثل ذاك الذي تصرخ به أسرّة الفقراء عند النوم عليها. لقّنني الواعظ

بكلائش جاهزة حينئذ، ونزل من على المقصلة، ليصطفّ قرب مدير السجن. قرأ الأخير بيان الإعدام بصوت رخيم، وهتف: «نفّذْ.» أنزل أحد الجلّادَين العتلة مردّداً: «بسم الله..» فانفتحت طبقة الخشب تحت قدمَيّ، وتدلّيتُ منها مثل قط مشنوق. انتبهت، فوجدت البروازَ ما زال بيدي، وحقيبة الكتف تفتح فمها. دسستُه فيها برفقةَ الكاميرا والشاحن، وضبطت منبّه الهاتف على السابعة ثم ذهبت إلى السرير.

ـ 53 ـ

«من أين يركبون إلى الكفل لو سمحت؟» سألت أحد المارّة في مرأب العلاوي، فقال بأنّ عليّ أن أركب إلى الحلّة أولاً، ومن هناك أواصل الطريق نحو ناحية الكفل. أشار بلطفٍ بعد ذلك نحو سيّارة كيا، قائلاً بأنّها ذاهبة إلى الحلّة. اكتمل عدد الركّاب حين وصلتُ. وضعتُ الحقيبة في حجري، وانحشرتُ بين مهذارَين يدخّنان بشراهة.

المسافة بين بغداد والحلّة ليست بعيدة، لكنّ الطريق الموصلة بينهما غير آمنة. هذا ما أكّده سهيل وسائق الكيا، الذي تحدّث كثيراً، وهو يُبدل ناقل الحركة ويزيد من سرعة المركبة، عن حوادث القتل الطائفي. كنت أستمع لما يتبادله ذلك السائق

المغامر مع المهذارَين قربي، من قصص الملثّمين الذين يظهرون فجأة على الطريق مثل ذئاب جائعة، والكمائن التي ينصبونها للمارّين، بحرفيّة عالية. لكنني لم أكن خائفاً من الوقوع في كمين ما، قدرَ ما كنت قلقاً من عدم التعرّف على جثّة أبي. سيكون من الضروري لقاء عبير هناك، فهي من يعينني، بلا شك، على ذلك. لقد تعاملتْ هذه الفتاة كثيراً مع الموت، وغطّت، بسبب طبيعة عملها، الكثير من المقابر الجماعيّة، وكتبت عما شاهدته هناك، عشرات التقارير الصحفية، التي كانت تضعها تحت عنوان: تراجيديا الوجع العراقي. لقد بلغ عدد المكتشَف من تلك التراجيديا القاتمة ثلاثمائة وخمسين مقبرةً تقريباً، ينام في كل منها مئات العراقيين، ممن أدّوا أدوارهم باتقانٍ وألمٍ كبيرين.

حدّثتني ذات مرّة عن أكبر مقبرة عُثر عليها بعد سقوط النظام 2003م. قالت بأنها تقع في قرية أبو سديرة التي لا تبعد سوى بضعة أميال عن مدينة بابل التاريخية. وتضمّ بين أحضانها ألفين وثماني مائة جثة، لضحايا تم دفنهم بشكل جماعي في عام 1991م. كانت الجثث متفسّخة تماماً، لم يبق منها سوى الجماجم والعظام ونتف الشعر، والخرق البالية. وكان الناس يتهافتون على المقبرة من كل حدب وصوب، ليتحلّقوا حول العظام المرصوفة فوق أكياس البلاستك، ويشرعوا بالبكاء والعويل. كان الآباء يحصون عظام أبنائهم بجَلَد تحير له الجِمال، بينما تُسارع الأمّهات إلى حلقات سفّ التراب على الرؤوس، كلما اكتشفت إحداهن عظمةً تخصّها.

تقول عبير بأنّها شاهدت رجلاً طاعناً في السن، يرتدي اللباس العربي، ويعتمر الكوفيّة والعقال، وقد بدا عليه الحزن والتأثر الشديدان. كان مقرفصاً، يحدّق في جمجمة وعظمَينِ ووِرك، وينفخ دخان سيجارة بحرقة بالغة. دفعها الفضول نحو الرجل، وظلّت تراقبه من بعيد حتى انتهى من تدخين سيجارته. مدّ يده بعد ذلك في جيبه، وأخرج كيساً بلاستيكيّاً، وضع فيه الجمجمة والعظمتين مع الوِرك، وهمّ بالانصراف. اعترضت طريقه إذ ذاك، ومدّت نحوه جهاز تسجيل صغير بغية إجراء لقاء سريع:

«لطفاً يا عم، لديّ سؤال لو سمحت.»

«تفضّلي.»

«هل جئتَ للبحث عن جثّة في هذه المقبرة؟»

«نعم، جثّة ماجد، ابني.»

«وهل عثرتَ عليها؟»

«نعم، ها هي.» قال بانكسار، وهو يرفع الكيس.

«وكيف تأكدت بأنّها جثّة ابنك يا عم؟»

أفلتَ الرجل من صدره آهةً كاد يقف لها قلبه، وأجاب:

«والله يا ابنتي، لست متأكداً من أنّ هذه العظام هي عظام ماجد، لكنّي، قبل سنوات أعطيت وعداً لأمّه وهي تحتضر، بأنّي

سأعثر عليه لأدفنه بالقرب منها، وأخاف أن أموت قبل أن أفي بوعدي لها.»

ثم حمل كيس العظام وانصرف.

ـ 54 ـ

«حضّروا هويّاتكم.. مفرزة.» قال سائق الكيا، وأردف:

«هذي اللطيفيّة.. الله يستر!»

خمسة ملثّمين ببزّاتٍ عسكريّة منزوعة الرُتب، يحملون بنادق كلاشنكوف، ويغلقون الطريق بالحجارة. على جانب الطريق تقف بيك أب، لا تحمل ما يدلّ على أنّها حكوميّة! كانت مجرّدة من لوحة التسجيل، ومرشوشة جوانبها بأصباغ البوية الرديئة. اقترب أحدهم منّا، وقال بصوت أجشّ: «أعطوني هويّاتكم.. بسرعة.» تذكّرت حينها تعليمات سهيل؛ أيّ من الهويّتين يجب إبرازه في اللطيفيّة. ناوله السائق، أولاً، هويّته، تمعّن بها، وأعادها إليه. تأخّر الراكب في المقدّمة قليلاً، فالتفتَ الملثّم نحونا، مدّ المهذارانِ بهويّتَيهما نحوه، فأخذهنّ وراح يتفحصّ الأسماء، ثم أعادهنّ إليهما داعياً لهما بالبركة. جاء من بعد ذلك دوري. أغمضتُ عيني، ومددتُ يدي في جيب القميص، وأخرجت الهويّة. تناولها الملثّم. دارت عيناه بينها وبيني. بلبلتني نظراته،

واعتمل الخوف في أحشائي حتى كاد يغشى عليّ. لم أكن واثقاً مما كان عليّ إخراجه؛ الهويّة المحشورة في جيب القميص، أم تلك النائمة مع المحفظة في الجيب الخلفيّ للبنطلون؟ عمر أم علي؟

«عمر؟» قال مستفهماً.

«نعم.» أجبتُ بشيء من التماسك.

«تفضّل أخي.. بارك الله فيك.»

نجوتُ إذن، ولم تُكتشف آثار التزوير في الهويّة. انتقل إلى الخانة الثالثة فالرابعة، ولم يبقَ إلا الراكب في المقدمة. هتف به الملثّم: «هويتَك.. خلّصْني.» ناوله الشاب الهويّة. قرأ الاسم، وقال بحزم: «انزلْ.» شدّ وثاقه واقتاده إلى البيك أب المركونة، ثم أشار إلينا بإكمال الطريق. يبدو أنّ المسكين لم يكن يحمل ما يُنجيه من سكاكين الموت. كم نحن مساكين يا إلهي! وكم يبدو هذا النوع من المصائر تراجيدياً! بين الموت والحياة هويّة.. قاتل الله الهويّات.

أخرجتُ هويّة «علي» من المحفظة وحشرتها في الجورب الأيسر، خشيةَ أن أتعرّض إلى التفتيش، ويُكتَشف سرّي في مفارز مماثلة. سأمضي بقية الرحلة عُمَراً لا عليّاً. شزرني أحد المهذارَين، لكنّي لم أكترث، رحتُ أراقب القرى والنواحي التي تطويها الكيا واحدةً بعد الأخرى. قرأت لافتة تشير بسهم إلى

جهة اليمين: «من هنا مدينة بابل الأثريّة.» رسا أسطول الذكريات في رأسي حين رأيت اسم بابل. تذكرت مدرّس التاريخ، الأستاذ عبد الباري، الذي اصطحبنا قبل اثنين وعشرين عاماً في سفرة إلى أرض الإله، كما كان يسمّيها. كان في منتصف الثلاثينيّات من عمره، متوسّطَ الطول، أنيقاً، بنظّارتَين طبّيتَين وأنفٍ طويل. لم يكن يحفظ أسماءنا عن ظهر قلب فحسب، بل الأسماء الثلاثية لستمائة ذكرٍ، هم عدد سكّان مدرسة التضامن الثانوية. وكان يشاركنا مسابقات كرة القدم للمدارس رغم أنه مدرّس تاريخ لا رياضة.

أخبرنا، حين وضعنا أقدامنا، لأول مرة في تلك الأرض، بأنّها مسكونة بأرواح الآموريين، وأنّ علينا ألا نبتعد كثيراً عن بعضنا البعض، أثناء التجوال بين الآثار والأبنية. أتذكر بأنّي شعرتُ بالرهبة وأنا أجتاز بوابة عشتار ذاك اليوم. بناء شاهق، مكسوّ بالقرميد الأزرق، ومزيّن بنقوش على هيئة مجسّمات نحتيّة مصغّرة لأسود وثيران وتنانين. قال بأنّ تلك الحيوانات رموز للآلهة المتعددة لدى أجدادنا؛ فالأسد رمز الآلهة عشتار، والثور رمز أدد، أما التنّين، والملقّب لديهم بـ «موش خوش»، فهو رمز للإله مردوخ. اصطففنا، بعدما فرغ أستاذنا من الشرح، أمام كاميرا أحد المصوّرين الجوّالين. التقط لنا صورة فوريّة، ظلّ يهزّ بها في الهواء حتى بانت ملامحها. أكملنا السير ونحن نتبادل الصورة ونضحك على أشكالنا التي ستختمر في إرشيف

المدرسة. دلفنا نحو الساحة الرئيسة بعد ذلك، فاستقبلَنا أسدٌ شامخٌ يمتطي زقورة حجرية، وينشغل بافتراس إنسان ينام بين ساقيه. هتف الأستاذ عبد الباري، وهو يشير نحو حدائق بابل المعلّقة: «الحقوني كي تشمّوا عبق التاريخ.» لحقناه إلى هناك، متلهّفين لزيارة واحدة من عجائب الدنيا السبع. فشابك يدَيه فوق صدره وراح يقول بفخر كبير: «في أحد الأيام كان جدّكم، نبوخذ نصر، جالساً برفقة زوجته، فاشتكت له أرضَ بابل. قالت له بأنّ هذه الأرض تصيبها بالملل، وأنّها تشتاق إلى أرض فارس ذات التضاريس والخضرة. فأمر الزوج العاشق ببناء حدائق معلّقة، تذكّرها بطبيعة الحياة في أرض أجدادها. لقد جلب عشرات المعماريين وآلاف البنّائين والحرفيين من أجل ذلك. شيّدوا ترّاسات معلقة على هيئة مدرجات صخرية، وأوصلوها ببعضها عن طريق سلالم رخامية مسنودة بأقواس رخامية كذلك، ثم أوقفوا التراسات على أعمدة من الرخام. بنوا على جنبات التراسات أحواضاً مبطنةً بمعدن الرصاص، وأحاطوها بسور ضخم، وزرعوا فيها أزهاراً ونباتات زينة. نصبوا من بعد ذلك مضخات لولبية، وضِعتْ على نهر الفرات، وجعلوها توصل الماء بطريقة السقاية الهيدروليكية إلى الترّاس العلوي، نعم كانوا يجيدون هذا، ثم جعلوا الترّاس الرئيس يمدّ بقية التراسات بالماء لسقاية الازهار والنباتات. هل رأيتم أعجب وأعظم من ذلك؟!»

ألهمتنا تلك الحكاية كثيراً، لكننا، في الواقع، لم نشمّ الم
الذي يتحدّث عنه بفخرٍ مدرّس التاريخ، فقد تم إكساء
الصروح بالطابوق «الجمهوري» الحديث، وبدت كأنّها بُنيت
السبت الفائت. قلنا له ذلك، لكنّه كان يكرّر الكلام وكأنّه
الإفلات مما يخاف عقباه. فلا شك أنّ جدران بابل تمتلك اذا
الوشاية، ولو كانت صمّاء لأطلق الرجل صرخة مدويّة أسقط
كل الطابوق القبيح الذي ينام على صدرها ويكتم أنفاسها. فـ
النظام ثورة «التحديث» ليحيل بابل إلى جدران من الطابو
التافه، ويخرجها من قوائم اليونسكو للمدن الأثرية. شُيّدتْ فوقها
آنذاك ثلاثة قصور بطابوق يحمل النقش «ص ح»، وكراجٌ كبير
من الإسفلت، ثم مُدّتْ بين أضلاعها أنابيب نفط عملاقة. دخلت
أمريكا أرض الإله من بعد ذلك لتكمل مسلسل التخريب، فسارت
المجنزرات ودبابات البرامز فوق شارع الموكب، الذي سارت
عليه ملوك بابل العظيمة وشعبها وكهنتها. هُشّمت القطع الأثرية،
وامتلأت المتارس الترابية، التي بناها الجنود، بقطع الفخار والرُقم
الطينية المسمارية. لقد تعرّض، بفضل أمريكا، خمسة عشر موقعاً
أثرياً للنبش والسرقة، وتمت استباحة المتحف العراقي أمام أنظار
جيشها، وهُرّبت آلاف القطع الأثرية الثمينة إلى ما خلف الحدود.

لا أظن بإن الأستاذ عبد الباري قد عرف بما جرى لأرض إلهِهِ
التي يعشقها، ويعلّق صورتها في غرفة المدرّسين. فقد وقع أسيراً
لدى إيران، ولم يتم تحريره حتى الساعة.

وصلنا إلى الحلّة أخيراً. أنزلت حقيبتي، واشتريت قنينة مياه معدنيّة من كشك صغير لدى باب الكراج. ثم أستأجرتُ سيّارةً، تقلّني إلى حيث يتم فتح مقبرة المناضلين في ناحية الكفل. امتعض السائق حين سمع كلمة «المناضلين» وكأنّ أحدهم شتم أسلافه. كانت مقبرة صغيرة خلف مرقد النبي حزقيل بثلاثمائة متر تقريباً. شاهدتُ، حين وصلت هناك، رجالاً يتحلّقون حول حفرة في الأرض، ونساءً يلطمن صدورهن، ويولولنَ بأعلى أصواتهن. اقتربتُ منهم، لكنّ أحداً لم يكترث لي. كان المتطوّعون منشغلين بانتشال العظام والجماجم، والآخرون بانتظار أن يتعرّفوا على ما يخصّهم منها. لقد فتحت إحدى الآليّات حفرةً صغيرة في الأرض، بينما تكفّلت لجان المتطوّعين، وبعض أهالي الضحايا بإتمام عملية الحفر بالمعاول وبأيديهم. أخرجوا، حتى لحظة وصولي، تسع عشرة جثّة غير مكتملة النصاب. كانت أكوام عظام بلا هوية، فعمر المقبرة قد تجاوز الثلاثين عاماً، ولا هويّات تصمد كل هذا الوقت.

يمضي النهار، وفريق عبير لم يصل بعد. أتصل بها على هاتفها الجوّال ولا جواب سوى ما يردّده المجيب الآلي بأنّ الهاتف مغلق أو خارج نطاق التغطية. أُنهي علبة سجائر كاملة، دائراً بين أكوام العظام، معلّقاً الكاميرا على صدري من أجل صورةٍ انتظرتها عمراً بأكمله. أتّجه نحو موظف الصليب الأحمر لعلّه يدلّني على عظام أبي، فيطالبني بالصبر قائلاً بأنّ العمل لم ينته بعد، والبحث عن

باقي الجثث ما زال جارياً. من أين آتي بالصبر؟! انتظرتُ عل
جمرٍ حتى اكتملت عمليّة التنقيب، وتم انتشال آخر عظمة مدفو
في تلك الحفرة. سُطّرت الجثث من بعد ذلك على هيئة صفو
منسّقة، فوق أكياس بلاستيكية بيضاء وسوداء، ومُنحتْ كل وا
منها رقماً، ثم سُمح للمتحلّقين حول المقبرة بالتعرّف عل
موتاهم، قبل أن يتم لفّهم بالأكفان الجاهزة. كان التراب يحش
ثقوب الجماجم، وتحت كلّ جمجمةٍ وضِعت مجموعة عظام
غير مكتملة العدد. رأيت بعض الشباب يلمّون آباءهم بالأكياس
البلاستيكية وقطع القماش، ويذهبون نحو موظّف الصليب كي
يوقّعوا على وصل الاستلام.

ليس ثمّة ما يؤكّد بأنّ من في الأكياس يخصّهم، لكنّ الانتظار الذي طال سبعةً وثلاثين عاماً جعلهم مقتنعين بذلك، راضين بما تحصّلوا عليه من حفنة عظام. لقد أيقنوا بأنّ آباءهم لن يعودوا إلى الحياة ثانيةً، وأنّ لا بدّ من بناء قبور لهم يبكون إلى جوارها، فمن شأن القبور، حتى وإن كانت غير مؤكّدة، الإعانةُ على ذرف الدموع والتخفيفُ من وجع الفراق. إنها الأنانيّة بأجلى صورها؛ يدسّ المرء أحبّته في القبور ليخفّ لهيب قلبه ويعود إلى ممارسة الحياة من جديد! تمتمتُ بذلك وأنا أرى الجميع يُسرعون بأكياسهم نحو المقابر، لكنّي سألت شيخاً وقوراً كان يحمل واحداً من تلك الأكياس:

«ما السرّ وراء حرصك على دفنه في قبر مشيّد ومنفرد؟»

فقال بحزنٍ وانكسار شديدَين:

«عندما لا تكون لك شاهدة قبر فإنك تموت مرّتين، مرّة حين تفارق الحياة، ومرّة حين تُنسى ولا يتذكّرك أحد.»

أوشكت الشمس على المغيب، وبدأ الناس بالانصراف، بينما راحت أعداد الجثث تتناقص. اقتربتُ، بعدما كاد اليأس أن يُطبق على قلبي، من جمجمةٍ متوسطة الحجم تنام قرب كوم عظام، على أحد الأكياس. قرفصتُ وتناولتها، قلّبتها وصرت أعدّ ثقوبها؛ ثقب، ثقبان، ثلاثة.. لقد دُفنت حيّة، إذ لا أثر لثقب سابع فيها. حدّقت فيها طويلاً؛ كان سلكٌ معدنيّ يربط الأسنان ببعضها البعض. شعرتُ بأنّها تخصّني. أعدتها إلى مكانها. رصفتُ العظام تحتها، فحصلت على أبٍ غير مكتمل النصاب. التقطت له صورةً، ثم وضعته في كيس بلاستيكي أسود، وحملته ومضيت.

ـ 55 ـ

كان الظلام يغلّف المدينة، وطريق العودة لم يعد سالكاً. نظرت نحو السماء، فرأيت القمر شاحباً كوجوه الموتى، تزحف نحوه غيمة رماديّة كئيبة. كنت وحيداً، أسير في الظلام، على غير هدىً، حاملاً أبي في كيس أسود، ومدندناً: «أيها الراقدون تحت التراب.. جئت أبكي هوى الأحباب..» رأيت في الأثناء ضوء

سيّارة من بعيد. توقفتُ ومددتُ يدي ملوّحاً. كانت تا...
كراون، يقودها سائق مخمور. أخبرته بأنّي غريبٌ في الم...
ورجوته أن يوصلني إلى الحلّة، ويدلّني على فندق هناك، ...
أبات فيه ليلتي. قال: «حسناً، اركبْ.» ركبتُ محتضناً ...
العظام إلى صدري، ومضينا شمالاً نحو مدينة الحلّة. مدّ السا...
نحوي زجاجة العَرَق وقال مازحاً: «تفضّل.. هذا عَرَق قدي...
يحيي العظام وهي رميم.» شكرته وعاودت الصمت. كان ...
نهاية الخمسينيّات من عمره، حالق الذقن والشاربين، يرتد...
ثوباً أبيض تتناثر عليه قشور حبّ عبّاد الشمس، ويعتمر قلنسو...
محاكاةً بيضاء. لقد بدا مسترخياً وكأنّه جالس في حانةٍ، يشر...
العرق ويمزّ بالمكسّرات. لكنّه ارتبك حين رأى وميض مصبا...
متقطع بعيد، وأمسى لا يعرف بالضبط ما عليه فعله؛ هل يكبس
على الفرامل، أم على دوّاسة البنزين، أم يستدير ويعود؟! رمى
زجاجة العَرَق من النافذة، ثم التهم عدداً لا بأس به من حبّات
الهال، وصار يلوك بها ويستعيذ بالله من الشيطان. قرأ بعد ذلك
آية قرآنية، عرفتُ بأنها تنفع للاختفاء والعبور: «وجعلنا من بين
أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يُبصرون.»
وراح يكرّرها بخشوع حتى ظننتُ بأنّ الله سيمنحه جناحَين
ليطير بهما مثل الملائكة، أو يرسل إليه طاقية إخفاء عاجلة
تخلّصه من ورطته.

لم أعرف السرّ وراء ارتباك السائق المفاجئ ذاك، ولا ما تعنيه

إشارة المصباح المتقطع تلك، لكنّ حال الرجل كان يدلّ على أننا في ورطة. اقتربنا من الضوء كثيراً، وإذا بها مفرزة مؤقتة، من تلك المفارز التي تغلق الطريق بالحجارة، وتفتّش عن الهويّات حصراً. جنديّان، بلا رُتب، ملثّمان، يحمل كل منهما مصباحاً وبندقية كلاشنكوف. على الجانب تقف بيك أب مجرّدة من لوحة التسجيل كذلك، ومرشوشةٌ بذات الصبغ الرديء. «هويّاتكم.» قال أحدهما موجّهاً السلاح نحو السائق. ناوله السائق التائب للتوّ، هويّته. قرأها على ضوء المصباح وأعادها إليه. مدّ يده بعد ذلك نحوي وتناول هويّتي التي دفعتها نحوه بشيء من الاطمئنان. لكنّه حين تفحّصها، ضرب على بدن السيّارة بيده وقال: «انزلْ.» نزلتُ من الكراون حاملاً كيس أبي، فتقافز من البيك أب ملثّمان آخران مدجّجان بالسلاح كذلك. فتل أحدهم يدَيّ إلى الخلف وكتّفني، ثم وبحركة واحدة، رمَوني في الحوض الخلفي المكشوف، وطاروا بي. سمعتُ صوت فرامل التاكسي وهي تهرب بعيداً. ليتني شربتُ العَرَق من يد ذلك السائق، وتمتمتُ بما تمتم به حين رآهم. في الطريق سلبني أحد الخاطفين الهاتفَ المحمول وحقيبةَ الكتف، ثم تناول الكيس الأسود كي يعرف ما فيه، لكنّ البيك أب ارتفعت إلى الأعلى وهبطت، بسبب مطبّ لم ينتبه إليه السائق، فطار الكيس من يد الخاطف وتناثر ما فيه على الطريق. مرّت، في الأثناء، شاحنة نقل مسرعة، دهست الجمجمة وسحقت العظام المتناثرة.

لقد سمعتُ صوت أبي وهو يصرخ قبل أن يتهشّم رأسه تحـ
إطارات الشاحنة. ناديت على الخاطفين أن يتوقفوا كي ألملم شظايا
أبي، لكنّ أحدهم أسكتني بركلة على فمي، ثم وضع عصابة على
عينَيّ وهدّدني بالقتل إن فتحت فمي مرّةً أخرى. سارت البيك أب
لمسافة طويلة سالكةً طرقاً معبّدةً وأخرى غير معبّدة حتى وصلنا
أخيراً إلى منطقة يغلّفها سكون تام. لم يكن للحياة صوتٌ هناك.
الموت وحده، كان يتمشّى في الدهاليز، ويبات ليلته حيث يشاء من
السراديب والأقبية.

أنزلني الخاطفون، وساروا بي بضعة أمتارٍ قبل أن يفتح أحدهم
باباً حديدياً مغلقاً بالسلاسل. كان صرير الباب مخيفاً مثل عينَيّ
عفريت في حجرة مظلمة. صفعني أحدهم وهو يدفع بي نحو
الداخل. تدحرجتُ على السلّم الحجري المتآكل، وسقطت في قبوٍ
رطبٍ وخانق. أغلق الخاطفون البابَ بالسلسلة الحديد، وغادروا.
ليس في القبو أحدٌ سواي. كنت معصوبَ العينَين، أستمع لحركة
الفئران والحشرات الزاحفة نحوي. «يا إلهي! أين أنا؟ ومن هؤلاء
السفلة؟ وماذا يريدون منّي؟» علامات استفهام أضاءت فوق رأسي،
وردّدتُها بصوت خافت خشيةَ أن يكون لجدران القبو آذان.

وفي الصباح، سمعت صوت الباب يُفتَح. كنتُ ملقىً على الأرض،
أُوشك على الموت جرّاء العطش والخوف. أمسك أحدهم بكتفي
وأجلسني. سقاني القليل من الماء، ثم صفعني على قفاي مرحّباً:

«أهلاً بعمر.. أهلاً بابن العاهرة.»

علمتُ، من تلك الصفعة وذلك الترحيب، مع من تورّطت، وأيّ هويّة كان يجب عليّ إبرازها آنذاك!

«أنا لست عمر.» قلتُ، وعيناي لم تزل معصوبتين.

«اسكتْ قبل أن أملأ فمك بالخراء» أجاب، ثم صفعني من جديدٍ، وغادر.

ـ 56 ـ

كان رأسه مهشّماً، وعيناه مندلقتَين على خدَّيه، يمسك بيده الوحيدة عظمة فخذٍ مكسورة، وينفث من جوفه هواءً ساخناً. تقدّم نحوي وكأنّه يطلب معرفة ما جرى. هممتُ أن أروي له الحكاية كاملةً، لكنّ سقف القبو تداعى وسقط، فانتبهتُ. كانت عيناي ما تزالان معصوبتَين، والفئران مستمرة في الحركة.

ـ 57 ـ

في اليوم التالي فكّ أحدهم العصابة وأطلق سراح عينَيّ. كان خيط رفيع من أشعة الشمس يخترق القبو من خلال فتحة صغيرة

في الأعلى، فيصنع حزمة من الضوء محفوفة بالأتربة. تتبّعت تلك
الحزمة حتى النهاية. كانت تسقط على وجه شاب متجهّم لم يبلغ
العشرين من عمره بعد، يحمل بيده بندقية كلاشنكوف ذات أخمص
خشبي. وبالقرب منه يقف شاب آخر يلفّ رأسه بكوفيّة سوداء ويلوّح
بمسدس عيار تسعة. كانا صغيرَين بما فيه الكفاية على حمل السلاح،
وخوض جلسات التحقيق!

«اسمك عمر؟» سألني صاحب الكوفيّة.

«كلا.» أجبته.

«ما اسمك إذن؟»

«اسمي علي.»

«لكنّ الهويّة تقول: عمر!»

«لأنّها هويّة مزوّرة.»

ضحكا، وركلني المتجهّم مطالباً إيّاي أن أجيب على أسئلة الشيخ
بلا لفّ ولا دوران. أقسمت له بأنّي لست عمر، وأخبرته بمكان الهويّة
الأخرى في الجورب الأيسر. أخرجها بعد ركلتَين في الخاصرة، وبدأ
يقرأ بنبرة هذا الذي لا يبدو مقتنعاً بما يقرأ:

الاسم: علي

اسم الأب والجد: عبد الأمير سلمان

اللقب: النعمة

اسم الأم والجد: نزيهة جاسم

الجنس: ذكر

«ذكر بَط» علّق ضاحكاً، ثم قلب الهويّة وأكمل قراءة البيانات:

المهنة: كاسب

الديانة والمعتقد: مسلم

تاريخ الولادة: 13/ 5/ 1968

محل الولادة: بغداد/ الرصافة/ حيّ الشعلة

رمى الهويّة من يده، وصفعني على قفاي معلّقاً: «ابن الساقطة، تضحك علينا؟»

شعرت بأنّ هويّة «علي» رفعت منسوب الشك لدى الشابّين! فراحا يركلاني. وبعد ثلاثة عشر ألف ركلة وركلة، قرفص صاحب الكوفيّة، واضعاً وجهه الأصفر قبالة وجهي، وتفوّه بكلمات متقطّعة كأنّه يحصي عدد حروفها:

«مَـنْ أرْسَـلَـكَ إلَـيْـنـا؟»

«لم يرسلني أحد صدّقني.. ثم من أنتم بالضبط، ولماذا أنا هنا؟» أجبته.

«اخرس، وأجب على السؤال.» زجرني، ثم أعاد السؤال بصيغة أخرى:

«كم دفعت لك أمريكا كي تتجسّس علينا؟

آه! ها هي التهمة قد أصبحت جاهزة إذن؛ جاسوس لصالح أمريكا! وهي ذات أمريكا التي كنّا نتظاهر ضدها في المنفى. يا لسخرية الأقدار! لم أجبْه حينها بحرف واحد، إذ لم أكن قادراً على استيعاب ما يقول. أيّ جاسوسيّة، يتكلّم عنها هذا الفتى الأصفر، في عصر الطائرات بلا طيّار؟! وأيّ جاسوس هذا الذي تبعثه أمريكا إلى مقبرةٍ، وكاميرات الأقمار الصناعية باتت ترصد، لدقّتها، عدد الشعيرات في أنف تيسٍ مختبئ في مغارة؟!

«ابن كلب، هل أصابك الطرش؟!» صرخ المتجهّم، ولكم جبهتي بأخمص البندقية. سقطتُ إلى الخلف، وسال الدم على عيني. أجلسني الأصفر، صاحب الكوفيّة، من جديد، وطلب منّي أن أعترف قبل أن ينفّذ بي حكم الله ورسوله!

لا أدري من منح هذا الشاب، برائحة فمه الكريهة، حق الترافع باسم الله ورسوله! ومن أين جاء بكلمة المرور التي خوّلته الدخول إلى حساب الله، ومعرفة ما يريد الرب بشريعته وما لا يريد؟! ثم أيّ شريعة هذه التي تسمح لصبيانها بخطف العزّل والتنكيل بهم وإذلالهم؟! أخبرته بالحكاية كاملةً، لكنّه لم يصدّق، فبصق بوجهي في النهاية، ورحل برفقة مساعده مثل أيّ سافلَين. وفي المساء عاد المساعد برفقة شخص آخر، لا

يقلّ عنه تجهّماً ونتانةً. أغلقا باب القبو من الداخل، وشرعا بحفلة الركل والجلد والشتائم. كانا يضربانني بلا رحمةٍ وكأنّ بينهم وبيني ثأراً بائتاً من ألف عام. وكنت أصرخ بين قدمَيهما، طالباً للرحمة، لكن دون جدوى، فحفلات أخذ الثأر ليس من شأنها أن تنتهي سريعاً. قفز أحدهما في الهواء ونزل بقدمَيه على بطني، فأفرغت معدتي وبدأت أسعل. أشعل الآخر سيجارةً، وبدأ يتسلّى بإطفائها على ظهري ويدَيّ، ثم أنزل سرواله، وغسل وجهي برشقة بول خانقة. ملأا فمي بحفنة تراب رطب. شتما أبي وأمي والنرويج وأمريكا وشركة أديداس وسلسلة مطاعم ماكدونالز. كانا يريدان أن ينتزعا منّي اعترافاً بالجاسوسيّة لصالح الجيش الأمريكي، أو أيّ فصيلٍ مسلّح. صرخت ألف مرة بأنّ التهمة باطلة ومثيرة للضحك، وهتفتُ ألفاً أخرى بأنّ لا علاقة لي بأمريكا، ولا أنتمي لأيّ جهة أو حزب أو تنظيم أو فصيل مسلّح. لقد أقسمتُ لهما، بألف نبيّ ينام تحت التراب، وألف إمام يُزار، وعشرة آلاف ضريح ملطّخ بالحناء، بأنّي مواطن منزوع الانتماء، وأنّي جئتُ بحثاً عن عظام أبي ليس إلا. لكنْ دون جدوى، فهذا الفصيل من الكائنات مرتاب بطبعه، شكّاك بالفطرة. في النهاية تناول أحد الشابين بندقيّة الكلاشنكوف المسندة على الحائط، وضرب بأخمصها صدري، ثم بصق كلاهما عليّ، وغادرا.

توقفت الفئران عن الحركة وانقطع نشاطها المحموم، فغلّف القبوَ صمتٌ رهيب. فتحت عينَيَّ بصعوبة بالغة محاولاً النظر من خلف بقعة الدم التي كانت تغطيهما. رأيت أحدهم مرميّا قربي. ندهتُ عليه ولم يُجب. كان يتخذ وضعاً جنينياً، وكانت الدماء تغطّي جسده. حسبته للوهلة الأولى ضحية من ضحايا صبيان الشريعة وحماة عرضها، وأنّه أُحضر إلى القبو دون أن أشعر. زحفتُ نحوه. أزلت العصابة عن عينيه، فنهض مثل مارد. كان مشوّه الملامح وكأنّ لغماً قد انفجر بوجهه. عاد خطوة إلى الخلف، وقال بصوت يخرج من صدره: «أين قبري؟» مددت يدي كي أمسك به محاولاً الوقوف لكنه تلاشى، وانتبهتُ. كان النهار يهمّ بالرحيل، ولم يأتِ أحدهم بعد. الحرارة تتجاوز الخمسين مئوية، وتحيل القبو إلى مقلاة. أشعر بأنّ العطش سيقتلني، وأنّي سأُدفَن ههنا ويضيع خبري. أيّ قدر تعيس هذا الذي أخرجني من شقة آمنة في شمال الكون وسار بي آلاف الأميال ليرميني في هذه المقلاة الساخنة؟!

سمعت أخيراً صوت باب القبو وهو يُفتح. نزل من السلّم ثلاثة رجال؛ الأصفر، صاحب الكوفية السوداء، ومساعداه المتجهّمان النتنان. كنت مرمياً على الأرض مثل جروٍ تكاثر عليه الصبيان، معفّراً بالتراب المَدوفِ بالعَرَق والدم. أجلسني أحد المساعدَين عنوةً. رتّل صاحب الكوفيّة الحُكم الشرعي القاضي بموتي، وأمر بالتنفيذ فوراً. شدّ الثالث وثاقي، ثم أمسك بكتفي وأناخني إلى الأرض مصوّباً سلاحه المحشوّ نحو رأسي. لم تبدر منّي أي مقاومة أو كلمات استرحام، فالموت في مثل هذه اللحظات سيكون بمثابة هبة من السماء، حيث الخلاص من الوجع والقهر والإذلال. تذكّرت والسلاح في رأسي قول عبير: «العراق جنّة يا سعيد.» ففلتتْ منّي ضحكة لا إراديّة. هَمّ القاتل بالضغط على الزناد حينها، لكنّ الشيخ وضع كفّه على فوّهة المسدس، وأبعده بيده ثم بَرَكَ على ركبتَيه وقال لي:

«أنت لستَ جاسوساً يا عمر؟!»

«لا، وحق الله، لستُ جاسوساً، ولستُ عمر، ولا علي.»

«من تكون إذن؟ وماذا تفعل في ديارنا؟»

بلعت ريقي الممزوج بالدم والتراب واستدرت نحوه، إذ شعرتُ بأنّه صدّقني، وأنّي أُوشك على النجاة:

«اسمي سعيد ناصر مردان، أتيت من النرويج إلى العراق من أجل البحث عن جثة أبي في مقبرة جماعية. وإن كنتَ لا تصدّقني، فافتح الكاميرا وتأكّد.»

سقاني من قنينة المياه التي عنده، وأمر أحد صاحبيه بإحضار الكاميرا من السيّارة. أحضرها الأخير على الفور. حاول الشيخ فتحها، لكنّه لم يستطع، فناولنيها. فتحتها، وأبرزت له الصورة الوحيدة فيها، وقلت: «انظرْ، هذا أبي.»

نظر الفتى بدهشةٍ إلى حفنة العظام المصفوفة تحت جمجمةٍ محشوّة بالتراب، فأغلقها وردّد: «لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.» لكنّه همس في أذني: «سأعود لقتلك.» وغادر برفقة صاحبَيه. وفي المساء جاء أحدهم، واضعاً لثاماً على وجهه، ومخفياً عينَيه بنظّارة شمسيّة. فكّ وثاقي وأعطاني الكاميرا والجوّال ومحفظة النقود التي أمست بحكم «الشريعة» فارغة. أخرجني بعد ذلك من السرداب، وقال ابركْ ولا تستدر حتى يتلاشى صوت محرّك السيّارة، ثم اهربْ من هذا الاتجاه، فإنهم قرّروا تنفيذ حكم الإعدام بك غداً صباحاً.

تلاشى صوت الموت أخيراً. استدرتُ، فوجدتُني واقفاً وسط مقبرة شاسعة، غريباً، حافياً ومدمّى. مددت يدي في الحقيبة وأخرجت الهاتف النقّال كي أتصل بعبير من أجل أن ترسل لي من ينجدني، لكنّ بطّارية الهاتف كانت نافدة. نظرت حولي، ليس ثمّة سوى القبور ونباح الكلاب البعيدة. في النهاية، قرّرت السيرَ في الاتجاه الذي أرشدني إليه الملثّم الأخير، مستهدياً بضوء مصباح بعيد.

تذكرتُ، وأنا بين القبور، جاريَ العجوز، ياكوب يوندال. كانت بلدية أوسلو قد منحتني، آنذاك، شقةً صغيرة في الطابق التاسع من عمارة ڤينوس. وكانت عمارة مخصّصة للمتقاعدين وكبار السن، تقع وسط ضاحية هيليرود شرقيّ العاصمة. إلى الآن لم أفهم لماذا اختيرت لي من بين مئات العمائر التي تطرّز وجه المدينة! كنت الشاب الوحيد بينهم، وكانت شقة العجوز ياكوب، الذي تجاوز الثمانين بعامين، قبال شقّتي تماماً. طرقت بابه يومَ وصلت، لألقي عليه التحية، أملاً بالتواصل:

«صباح الخير سيّد ياكوب، أنا سعيد، جارك الجديد.»

«صباح الخير، أهلاً سـ......»

«سائيد، اسمي سائيد.»

«أهلاً بك سائيد.»

منتهى المهانة أن تضطرّ إلى تكسير اسمك من أجل أن يفهمه الآخرون.. سائيد! يا للخيبة!

أخبرني السيّد ياكوب، فيما بعد، بأنه ينوي رمي بعض الأثا
الزائد عن الحاجة، وطلب مني أن أساعده في ذلك، فوافق
التخلّص من الأثاث القديم، والأجهزة العاطلة، والأفرشة الخار
عن الخدمة، لا يتم بالمجّان في النرويج. عليك أن توصل ما تنو
رميه إلى محطات تدوير النفايات، ثم تدفع مبلغاً مقابل ذلك،
وإلا فستترتب عليك غرامة مالية إن رميتها في الطريق. استأجر
شاحنة وحمّلت فيها ما قرّر جاري الاستغناء عنه، ثم رميته في
محطة جمع النفايات. أهداني حينها مصباحاً أنيقاً، وطبقاً من
ثمار الكرز، كعربون جيرة وامتنانٍ، وصار يطرق بابي كلما دفعته
الحاجة للشعور بأنّه على قيد الحياة. لم أرَ، على مدى سنتين
كاملتين، أحداً يزوره، رغم أنّ لديه ثلاثة أبناء وأختَين. أخبرني
بأنّه يحتفل في عيد ميلاده وحيداً، وأنّ أبناءه يكتفون بتهنئته على
الهاتف. أخذت أقيم له من بعد ذلك حفلة ميلاد صغيرة، أدعو
إليها عجائز الطابق التاسع. أما في أيام العطل وحين تكون الدنيا
ربيعاً، فكنت أصنع لأجله ترمز شاي وقالب كيك هشّاً، وأصطحبه
في نزهة إلى الحديقة العامة.

صحوت ذات يوم على صوت سيّارة إسعاف عند باب
العمارة. هرعت إلى النافذة. رأيت المسعفين يحشون مؤخّرة
الإسعاف بسدية بيضاء، ينام فوقها السيّد ياكوب يوندال مطمئناً،
كمن ضمن النجاح في امتحان البكلوريا. لقد عثرتْ عليه عاملة
التنظيف ميتاً فوق كرسيّه الهزّاز في الصالة. أتذكر بأنّي فرشت في

مساء ذلك اليوم على مصباحه قماشة سوداء، حداداً عليه. وفيما بعد ذهبت إلى المقبرة، ووضعت إكليل وردٍ على قبره الأنيق في حقل الكرز.

كان ياكوب قد اشترى، بعد بلوغه السادسة والثمانين عاماً، حقلاً للكرز في طرف المدينة، وأوصى أنّ يُدفن فيه بعد مماته. سألته حينها:

«سيّد ياكوب، لماذا تريد الدفن في هذا الحقل؟»

فقال وهو يمضغ ثمرة كرز برويّة وتلذّذ:

«تقول أسطورة قديمة بأنّ الإنسان يتحوّل بعد الموت إلى موجودٍ آخر يتلاءم مع ما حوله، فإن دُفن في الجبال تحوّل إلى صخرة، وإن دُفن في البحر صار سمكة، وإن دُفن في الصحراء غدا رملة، لذا قرّرت أن أدفن في حقل الكرز كي أتحول إلى شجرة كرز.. المجد لمن نام في حقل الكرز.»

لا أدري إن كان جسد جاري الطيبّ هذا، قد تحلّل وأمسى شجرة كرز أم لا، لكنّي على يقين بأنّ روحه تنام بسلام وطمأنينة في ذلك الحقل.

آه، لو لا الطغاة لكان أبي الآن نائماً في قبر كقبر السيّد ياكوب، ولربما تحوّل إلى نخلةٍ شاهقة أو شجرة سدر وارفة الأغصان، قلتُ في سرّي مواصلاً المشي بين القبور. كنت أسير ببطء، يقود خطواتي ضوء مصباح واهن. قطعت مسافةً طويلةً حتى وصلت

الشارع العام. رفعت يدي لعلّ أحدهم يقف وينتشلني من ورطتي في ليلة المقابر المعتمة. شرعت المساجد بقراءة القرآن، وبدا أن الفجر يقترب. توقفتْ، أخيراً، سيّارة أجرة حديثة، وعرض عليّ صاحبها المساعدة. أخبرته بأنّي غريب، لا أملك المال، وأريد الذهاب إلى بغداد، وأنّي سوف أعطيه، حين أصل، ما يطلب، فوافق السائق الرحيم وأقلّني.

ـ 60 ـ

أنا الآن في بغدادَ يا أبي، أنام في أحد فنادقها كما يفعل الغرباء. أنظر إلى صورتك المتكئة على الكوميدينو، غير المعلّمة بشريط أسود، وأوقد لك شمعة. لا حاجة بك إلى أشرطة الموتى، إذ لا يشك من يرى صورةً لعظامٍ تصطفّ أسفلَ جمجمة بأن صاحبها ما زال يشم الهواء. هواءُ بغداد التي تعرف لم يعد نقياً يا أبي، لقد عفّنته حرب الهويّات. أوغاد طائفيون يتراقصون فوق صدرها، ويضعون الملح على جرح خاصرتها. هل أخبرتك بأنّ صورة من دسّك تحت التراب، وأنت حيّ، قد مُزّقتْ؟ وأنّ تمثاله الشاهق تداعى وصار عربة لركوب الصغار؟ لكنّ الصورة باضت ألف صورة، والتمثال فرّخ ألف تمثال. لقد باتت لدينا يا أبي صورٌ وتماثيل بعدد الخراف في قارة استراليا.

والغريب في الأمر أنّ ما من واحدٍ من هذه الخراف إلا وعُلّقتْ على صدره شارة القداسة، هل تصدّق؟ وكأنّ البلاد قد تحوّلت إلى مفقسة للخِراف المقدّسة.. وكأنّ أحدهم خطّ على بابها: هنا مفقسة المقدّسات! أما قصور الطاغية، عليه ما على الطبل يومَ العيد، وبيوته ومقارّ حزبه وأوكار تابعيه، فقد تحوّلت إلى قصور طغاةٍ صغار وأوكار تابعين خدّج ومقارّ حزبية مباركة. لقد أصبح لدينا مقرّات حزبية بعدد مطاعم السوشي في جمهورية الصين الشعبية. ولعلّ هذا لفرادتنا وتميّزنا، ففي كلّ البلدان التي سقط طغاتها تحوّلت قصورهم ومقرّاتهم إلى متاحف لأخذ العبرة، أو دورٍ لرعاية الأيتام، أو مخازن للحنطة على أقل تقدير، إلا نحن، فقد حوّلنا المقرّات إلى مقرّات، والله وليّ التوفيق! ألم أقل لك بأنّنا شعب فريد ومغاير؟!

آه يا أبي! إنّ الظلام الذي كنتَ، بصحبة رفاقك، تحاولون إيقاد شمعة لتبديده، ما زال يغلّف البلاد ويحيط بأكتارها. ما زال ذاك الظلام حاكماً، وما زال الأوغاد يضحكون على أذقاننا ويمصّون، مثل البعوض، دماءنا، تحت يافطات جديدة لا تقل سخفاً عما قبلها. لا أريد أن أثقل عليك، فما فيك يكفيك، لكنّي أودّ أن أصارحك بأنّك قد فشلتَ مرّتين؛ مرةً في حياتك، ومرّة في مماتك، فلا حياتك حياة ولا مماتك ممات! وأنّي، عذراً يا أبي، لا أريد أن أكون فاشلاً مثلك، لذا قرّرت الرحيل.

«ستهرب من جديد يا جبان؟»

«نعم، سأهرب، فلا طاقة لي على رؤية كل هذا الخراب.»

«ولمَ هززتَ طولك وأتيتَ إذن؟»

«أتيت لأجلك، وكنت أظنّ بأنّ البلاد قد صلح حالها، وأنّ بغداد أمست جنّة كما أوهموني، لكنّ ما رأيته خيّب ظنّي.»

«لو كنتَ محبّاً لبغداد، لبقيت فيها، تناضل لأجلها.»

«يااه يا أبي! تناضل؟! يا لها من كلمة يخرج من منخريها التراب! وماذا جنيتَ أنت من النضال؟ كوْم عظام في مقبرة جماعية! أتريد أن ينتهي بي الحال في مقبرة جماعية كي لا تنعتني بالجُبن؟ لا يا أبي، دعني فوق التراب، وقلْ عني ألف جبان.»

«لكنّ زمن المقابر الجماعية قد ولّى، ولن يتكرّر.»

«من قال هذا؟! لو كنتَ معي في رحلة المفارز الوهميّة تلك، لكان لك رأي آخر، ولو رأيتَ ما رأيتُ، وسمعتَ ما سمعتُ، لقلتَ لي ارحلْ صاحبتك السلامة.»

«أليس ثمّة أمل يا بُنيّ؟»

«قلتَ أمل؟ أمل موجودةٌ يا أبي، لكنّها خُطفتْ وقُيّدت بحبل غليظ، ثم رُميَت في قبوٍ مظلم، وأُغلق الباب عليها بقفل من حديد.»

«وأين المفتاح؟»

«المفتاح مخبّأٌ في الطيّة السادسة والخمسين لعمامة شيخٍ زنديق يحب المال والسلطة.»

كنت أخشى أن أغدو كوم عظام في كيس أسود، أن أتناثر على الطريق، وتدهس رأسي شاحنةٌ مسرعة. كنت خائفاً من تكرار المأساة، وأن لا تمنحني بغداد قبراً أنام فيه بسلام، كما فعلتْ مع أبي، لذا قرّرتُ الرحيل من جديد. لكنّي سأرحل هذه المرة بحثاً عن موتٍ لائق، لا عن حياةٍ لائقة. سأبحث هناك، في بلاد المرضيّ عنهم، عن موتةٍ رحيمة، لا تكون على يد صبيانٍ مدجّجين بالجهل المقدّس والعقائد الفتّاكة. سأفتّش عن قبرٍ كقبر جاري، السيّد ياكوب يوندال، لكي أنام فيه بسلام وطمأنينة. سأعود إلى النرويج من أجل النوم في حقل الكرز. أما أنت يا أبي، فكل ما أستطيع فعله لأجلك هو أن أوصيهم بدفن صورتك معي، لعلّ روحك تنعم بالسلام والطمأنينة.

ـ 61 ـ

في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى المشفى، أبدلتُ الجبيرة التي كانت تنام على صدري، وسألتهم عن القطبتين في جبهتي. قالوا بأنّ الجرح ما زال رطباً، وبحاجة لمزيد من الوقت لأجل

الشفاء. هذا يعني بأنّي سأعود إلى النرويج وفي جبهتي ا!
ذكرى مؤسية، قلت في نفسي قبل أن أغادر المشفى. ذه
إلى السوق، ابتعتُ شاحناً جديداً للهاتف، وبطاقة تعبئة، ما
لم أستخدم المحمول منذ خروجي من تلك المغارة المظلمة
ثم عدتُ إلى الفندق وانتظرت حتى الليل، الوقت الذي تكون
فيه عبير بمفردها وتستطيع الردّ عليّ. ضربتُ رقمها، فأجابت
وكأنّ إصبعها مزروعٌ عند زرّ الهاتف! قالت بأنّها اتصلت بي
ألف مرة، لكنّ هاتفي كان مغلقاً. أخبرتها بما جرى عليّ هناك،
فبكتْ، ولامتْ نفسها لأنّها كانت السبب وراء عودتي إلى
بغداد. قالت بأنّهم لم يستطيعوا الوصول إلى المقبرة يومذاك،
لأنّ مفرزة وهميّة، قرب اللطيفيّة، قد أوقفتهم، وألقت القبض
على إثنين من زملائها، ليتمّ تصفيتهما على الطريق أمام
عينَيها. انهارت وتعبت وهي تنظر إلى رفيقَيها يتوسّلان تحت
سلاح قاتليهما، مما جعلها تغيب عن العمل في الأيام التالية
للحادث.

لم أخبرها بقرار العودة إلى النرويج، لكنّي طلبت منها أن تعفيَ
نفسها من اللوم الزائد، وأن نلتقي كي نتحدّث. كنت أريد أن أراها ولو
لمرّة واحدة قبل أن أرحل.

«عبير، ما رأيكِ أن نلتقي غداً؟»

«أتمنى ذلك.. متى وأين؟»

«الثامنة مساءً في الكرّادة.. يناسبك؟»

«يناسبني أكيد.»

«طيّب، اتفقنا.. تصبحين على خير.»

«تصبح على خير.»

ـ 62 ـ

خرج سهيل، موظف الفندق الطيّب، وأغلق الباب خلفه بعد أن ملأ الثلاجة بقناني البيرة والمياه المعدنيّة. استلقيت على السرير محاولاً النوم، لكنّ نوبة صداع باغتتني وراحت تمسك بكلتا يديها رأسي. كانت تبدو مثل مصارع عملاق قرّر أن يقضي على خصمه في الجولة الأولى، وكنت أتلوّى تحت قبضته مثل فأر جبان. شاغلته بحبّة مسكّن، ريثما أفتح اللابتوب، فقَبِل بالهدنة وبدأ ينسحب رويداً رويداً. دلفتُ إلى البريد الإلكتروني لعلّ رسالة مهمة قد وردت إليّ من أحدهم. لم أجد سوى بضعة إيميلات ليست ذات أهمية. أغلقت البريد، ونقرت على ملفّ الصور، ورحت أقلّب صور عبير واحدةً تلو الأخرى، فشعرت بأنّ الصداع قد تلاشى تماماً. وضعت اللابتوب إذ ذاك جانباً، وأطفأت النور، ثم أغلقت عينَيّ، شابكاً كفَّي فوق صدري، مستحضراً حكاية الحب عن بعد. تلك الحكاية التي بدأت

برسالة قصيرة، وكبرتْ حتى صارت مجلّداً سميكاً، فصوله
الشوق واللهفة. يا ترى كيف يسمح الناس لأنفسهم بالاستخفاف
بهذا النوع من الحب، والتقليل من قيمته؟! وما علاقة الحب
بالمسافات؟!

آه! لو لم يجر لي ما جرى في رحلة المقابر هذه، لقلتُ بأنّي
محظوظ مثل كلب هولندي، ثم بصمتُ على ذلك، لأنّي أملك
حبيبةً تسكّن صورها وجعي. لكنّي قرّرتُ الرحيل وانتهى الأمر.
سأعود بمفردي، ولن يُكتب لنا أن نلتقي غير هذه المرّة، فعبير تشبه
السمك؛ تموت إن خرجتْ من بغداد. أخبرتها بأنّي سأرتدي عند
الموعد قميصاً أبيض وبنطال جينز خشية ألا تتعرّف عليّ. أما هي
فلا حاجة بها لعلامة، إذ ما زلتُ أحفظ شكلها عن ظهر قلب؛ حسناء
بعينين عسليتين، وشعرٍ تمريّ قصير، متوسطة الطول، رشيقة كنبتة
أوركيد، وديعة مثل حمامة.

ـ 63 ـ

وصلتُ مبكّراً. كانت الكرادة مضاءةً ومزدحمة، على خلاف
أحياء بغداد الأخرى. الشوارعُ تمتلئ بالناس، والأرصفةُ تتزاحم
عليها البسطات وعربات الباعة المتجوّلين. لم يكن ينقص
المدينة سوى المزيد من الأمان. شاغلت نفسي بالفُرجة على

التحف والتماثيل الصغيرة، ولوحات الرسم التي تزدحم بها غاليريهات السوق الأصفر. لفتت انتباهي لوحة كبيرة كانت معروضة على واجهة إحدى تلك الغاليريهات، جعلتني أقف عندها طويلاً. كانت مرسومة بالزيت على قماش الكانفاس، وتجسّد صورة رجل وقور يجلس في المقهى ويقرأ الجريدة، بينما تتصاعد خيوط الدخان من قدح الشاي الموضوع أمامه. لا أدري لمَ شعرت حينها بأنّي أعرف الرجل! ربما فعلت ذلك لأنّي تمنّيت لو كان أبي ما يزال على قيد الحياة، وأنّ أحداً لم يدسّه تحت التراب بعد. غادرت سوق الرسم باتجاه الشارع الرئيس. توقفت قليلاً أمام بسطة للميداليات والأحزمة الجلدية، يجلس خلفها شاب ودود. سألته لو يستطيع أن يصغّر لي الحزام، إذ فقدت سبعة أرطال من وزني وصار الجينز واسعاً بعض الشيء. فقال: «على عيني.» وأضاف لي ثقبين بدل الثقب الواحد، تحسّباً لفقد أرطال أخر. شكرته ومضيت. أكملت طريقي شمالاً، حتى وجدتُ نفسي واقفاً أمام محل لبيع العصائر، يحمل يافطة ضوئيّة، مكتوب عليها: «جبّار أبو الشربت». أحسست بالعطش حين رأيت نافورة العصير الصغيرة البازغة من بين تلال الفاكهة، والمثبّتة باتقان في واجهة المحل. كانت واجهة أنيقة تتدلّى منها، بواسطة سلك رفيع، ثمار البرتقال والرمان والموز، وكانت الأنوار تصنع بعض البهجة. لقد أُضيف إلى قاموس الأمنيات العراقيّة أن تكون الكهرباء الوطنيّة موجودة. يقول

سهيل بأنّ الحكومة لا تريد إصلاح الكهرباء كي تسهّل على الشعب الدخول إلى الجنّة. وحين سألته عن الربط بين الكهرباء والجنّة، قال بلغته العفوية الساخرة: «إنّ كثرة الصلاة على النبي تُدخل الجنّة، ونحن كلما عادت الكهرباء هتفنا: اللهم صلّ على محمد وآل محمد. لهذا يقطعونها عنّا كثيراً ويعيدونها.»

طلبت قدحاً من عصير الرمّان، وتنحّيت جانباً ريثما يجهز. باغتني ألمٌ في معدتي، مثل ذاك الذي يصيب اليتامى بعد ليل جوع طويل. تحسّستُه، فانتقل إلى صدري وتلاشى مخلّفاً شعوراً ثقيلاً يصعب شرحه. لكنّي سرعان ما تناسيته ورحت أراقب المارّة. أحب الطرقات المكتظة بالمارّة. وجوه الناس حكايات لا تشبه بعضها البعض، إلا العراقيين، فحكايتهم الحزن. كُن عراقياً لتكون حزيناً! سأعود وذاكرتي ممتلئة بآلاف الوجوه الحزينة، وسأشكو إلى السماء، من فوق جبل غالدهوبيغن الشاهق، حالهم.

رنّ هاتفي النقّال، عبير على الخط:

«مرحبا سعيد.»

«أهلاً عبير، أين وصلتِ؟»

«الآن نزلت من التاكسي.»

كانت مرتبكة على غير عادتها، وصوت أنفاسها يطرق أذني.

«أين أنت؟»

«أنا هنا عند جبّار أبو الشربت.»

«آه! هذا يعني بأنّي قريبة عليك.»

«حسناً تعالي سأطلب لك قدح عصير.»

«عبير.. ألو..»

انقطع الاتصال قبل أن أعرف ما تفضّل شرابه! ربما لم تسمعني بسبب الضجيج فأنهت المكالمة، أو أنّ شحن البطارية لديها قد نفد وانغلق الهاتف. لم أجرّب إعادة الاتصال بها على أيّة حال، سأطلب لها عصير الرمّان على مسؤوليتي، فرمّان الكرادة لا يُضاهى.

اقتربت من الشاب الواقف خلف المِعصرة وطلبت منه أن يجعلهما قدحَين مع زيادة في الثلج، ورحت أنتظر وصول عبير. أقبلتْ أخيراً. عرفتها قبل أن تلوّح لي بيدها من بعيد. كانت تلبس تنورة رماديّة، وقميصاً باهتاً بلون الياسمين، بأكمام طويلة. «تفضّل أغاتي.» قال الشاب، وهو يناولني قدحين عظيمين من عصير الرمّان الطبيعيّ. وبالرغم من عطشي الشديد، وبالرغم من حبّات الماء المغرية التي تكوّرت على الأقداح من الخارج، قررت ألا أشرب حتى تصل عبير ونتشارك اللذة. كانت تشير لي من بعيد «اشربْ» لكنّي لم أفعل. كنت أمسك بالقدحين وأنظر

إليها. هبّت في الأثناء نسمة هواء جعلت من التنورة تحكي
تحتها، فأسكتَتْها بحقيبة اليد الصغيرة خجلاً، ثم حثّت الخط
أسرعت لأنها تعرف بأنّي عطشان، وأنّي لا أقاوم عصير الرمّا
اقتربتْ كثيراً. لم تبق سوى خطوات تفصلها عنّي، لكنّ صو
رهيباً دوّى في أذنَيّ فأصمّهما وأسقط القدحين من يدي. لقد
فقدتُ السمع والبصر، لأجزاء من الثانية، وحين استعدتهما
رأيت محل العصائر وقد تحوّل إلى ما يشبه فجوة سوداء في
خاصرة المبنى. كانت الجثث متناثرة من حولي، والدماء تختلط
بالعصائر لترسم خرائط موتٍ ملوّنة على الرصيف. ما جرى في
تلك الأجزاء اللعينة من الثانية كان حفل شواء رهيب لا يُمحى
من الذاكرة. أجسادٌ متفحمة يخرج منها خيط دخان رفيع، أطراف
متقطعة ما زالت النيران مشتعلة فيها، ذراعٌ معلّقة في أعلى البناية،
لا أدري كيف وصلت هناك، أحذيةٌ مصبوغة بلون الدم نُزِعت
من أقدام أصحابها وتركتهم يغادرون الدنيا حفاةً كما جاؤوها،
شظايا زجاج متكسّرة فوق أجساد الضحايا وعلى جنبات الطريق.
كان صوت سيّارات الإسعاف يرجّ الكرّادة، والناس يهرعون بحثاً
عن أحبّائهم في مشهد لا يمكن، لفرط الفزع، وصفه. رأيت امرأة
حافية ترتدي ثوباً بلا عباءة، تركض نحونا، وهي تلطم على
رأسها وخدّيها وتصرخ: «مهنّد.. مهنّد.. مهنّد..» سمعت أحدهم
يقول بأنّ ابنها، مهنّد، كان يبيع الأحزمة الجلدية على الرصيف
قبالة محل العصائر. لقد أكلته النار مع الأحزمة دون شك. فتّشتُ

عن عبير، فلم أجدها من بين الجثث! درت بين الركام بحثاً عنها، بلا جدوى. في النهاية وجدتها مرميّة قرب ساقية صغيرة بمحاذاة الرصيف. كانت جثة متفحّمة.

لم ينجُ من الحادث أحد. ثلاثمائة طن من المتفجرات، حشرها ابن قحبة في سيّارة مركونة أمام محل العصائر، وبضغطة زرّ انفجرت ليموتَ الجميع ويُسجّلَ الأوغاد نصراً على العصائر. لقد مات كل من كان هناك إلا أنا، لا أعرف كيف خرجتُ من الحادث صاغاً سليماً! تلمّست وجهي، جسدي، أطرافي.. كل شيء كان في مكانه. حاولت أن أساعد رجال الإطفاء في إخماد الحريق، لكنّهم أكملوا عملهم وغادروا دون الحاجة لي. الشرطة، هم الآخرون قد غادروا بعد أن فرّقوا الناس وأكملوا رسم مخطط روتيني للحادثة. سيارات الإسعاف كذلك غادرت إلا واحدة، كانت تحمل جثتين، وتبحث عما إذا كانت هنالك جثث أخرى، أو أطراف عالقة داخل محل العصائر. كنت أراقبهم، والألم يعتمل في صدري ويحيله إلى فرن ساخن. لقد خلّف الحادث جرحاً غائراً في قلب بغداد لن يُشفى، ورمى على صدرها جبلاً ثقيلاً من الهم والغم والأسى.

نظرت إلى الضفة الأخرى فرأيت أحدهم مرمياً، لقوّة العصف، هناك. لم يكن النور كافياً لمعرفة ما إذا كان ميتاً أم لا. هرولت نحوه، فوجدته جثةً هامدة فوق الرصيف، ممزّق الثياب ومكفياً

على الوجه. ناديتُ خلف الإسعاف كي يعودوا لحمله، لكنهم كانوا
قد ابتعدوا كثيراً. قلبته على قفاه، كان شاباً نحيفاً في منتصف العمر،
لا يغطي جسده سوى بقايا قميص أبيض وبنطلون جينز. تمعّنت في
وجهه الذي بدا مألوفاً رغم الحروق، فرأيتُ قطبتَين، لم يُكتب لهما
الشفاء بعد، يعلوان جبينه. التفتُّ إلى الوراء، رأيتُ أبي واقفاً ينظر
نحوي بشفقة على غير العادة. كان مكشوف الوجه تماماً، وسيماً
ومشرقاً رغم أنهار الحزن المحفورة في جبينه. مددتُ يدي نحوه،
فأمسك بها أخيراً، وتلاشينا.

تتمة

عند الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة من صباح يوم الجمعة، الموافق للثامن من شهر تموز 2005م، تلقّت وحدة الإسعاف الفوري في مستشفى أوسلو العام، اتصالاً هاتفياً من قبل السيّدة باربارا، عاملة التنظيف في عمارة ڤينوس، الواقعة وسط ضاحية هيليرود شرقيّ العاصمة. وقد ذكرت المتصلة بأنّها عثرت على السيّد سعيد ينسين، ساقطاً على الأرض في شقّته في الطابق التاسع من العمارة، داخل غرفة المكتبة، وأنّه كان متشنّجاً وفاقداً للوعي. وصل المسعفون عند الثامنة وأربع وثلاثين دقيقة، لكنّ أوان الإسعاف كان قد فات، إذ توقّف قلب السيّد ينسين عن العمل تماماً، وفارق الرجل الحياة. وفي اليوم التالي أثبت تقرير الطبيب الشرعي بأنّ سبب الوفاة كان جرعة زائدة من عقار الكيتامين.

عُثر فوق منضدة الكتابة على رواية مخطوطة، كان سعيد ينسين قد فرغ منها قبل ساعات من وفاته على ما يبدو، ومعها رسالة

معنونة إلى صحيفة داغ بوستن/ هيلينا يورستاد. سُلّمت المخطوطة والرسالة إلى يد رئيسة التحرير، السيدة هيلينا، التي راحت تفض المظروف بارتباك وحزن شديدَين. كانت وصيّةً قصيرة من قبل سعيد ينسين، يطلب فيها أن تُنشر حكايته وهلاوس رحلته إلى بغداد، التي حُرم من رؤيتها بسبب نكتة تافهة، وأن يُمنَح شاهدةَ قبر لئلا يُنسى ويُمحى ذِكرُه، فيموت مرّتين.

قضت هيلينا تلك الليلة وهي تبكي مُمسكةً برواية صديقها الذي رحل مبكّراً بلا وداع. وفي الصباح، وبعد الانتهاء من قراءتها، اتّصلتْ بوَرَثة السيّد ياكوب يوندال، الجار المتوفّى قبل عدة أعوام، وتحصّلت على إذن خطيّ منهم، يسمح لها بدفن سعيد هناك. أقامت له، بعد بضعة أيام قضاها في ثلّاجة الموتى، مراسمَ دفنٍ تحت ظلال شجر الكرز، حضرها زملاؤه في صحيفة داغ بوستن، ولفيف من قرّائه ومحبّيه. دسّت معه، في النهاية، البرواز الذي كان معلّقاً في غرفة المكتبة، وخطّتْ على شاهدة قبره: «هنا ينام سعيد ينسين.. المجد لمن نام في حقل الكرز.»

المترجم

أوسلو 2010

ملاحظة

أي تشابه أو تطابق في الأسماء والأحداث والأمكنة، ضمن هذا النص، هو محض مصادفة ومجرّد من أيّ قصد.

النوم في حقل الكرز

يروي الكتاب قصة مهاجر عراقي يعيش في بلد أوربي، يتلقى في أحد الأيام رسالة تدعوه للحضور فوراً إلى بغداد. وبعد أن يعرف أسباب الدعوة، يقوم بتقديم استقالته من العمل والعودة إلى هناك، تاركاً خلفه حفنة سنين ثقيلة من الغربة. حالما يصل إلى بغداد يبدأ بالبحث عن عبير، المراسلة الصحافية في وكالة بي بي سي الأخبارية، والتي تقوم بمساعدته في رحلته لاكتشاف مصير مجهول. تمضي أحداث الرواية وتتشابك في رحلة ممتعة يكتنفها الكثير من المفارقات والمفاجآت. رواية تتقصى، عبر تقنيات سردية بارعة، ما جرى في العراق بعد عام 2003م، وتثير أسئلة جريئة عن جذور العنف والتطرف هناك.





ISBN 978-9-9226077-4-0

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain_L
dar.alrafidain
dar alrafidain دار الرافدين